من أجل البلوند

الكـــتـــاب : من أجل البلوند / حمَّاد عليوة
المـــؤلـــف: عليوة، حمَّاد
الـــنـــوع : رواية
الطبـــعـــة : الأولى/ القاهرة ٢٠١٤
عدد الصفحات : ١٧٦ صفحة
المـــقـــاس : ١٤×٢٠
تـــدمـــك:
١- القصص العربية

تصميم الغلاف: محمد عليوة
الإخراج الداخلي: شيماء رضوان

صرح للنشر والتوزيع | نفكر يصنع حضارة

المدير العام: عبود مصطفى عبود
٣٠ ش. ابن بطوطة - مدكور - فيصل.
ت: (٣٥٨٧١٨٣٨)(٢+)
البريد الإلكتروني: darsarh@gmail.com
الموقع الإلكتروني: www.dar-sarh.com
رقـــم الإيـــداع : ٢٢٦٣١/ ٢٠١٤
التـــرقيم الـــدولي: 978-977-724-009-3
ديـــــــــوي : ٨١٣

حقوق النشر محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إليكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

من أجل البلوند

روايــة

حمَّاد عليوة

المحتويات

١. الكلاب ٧
٢. روز ٤٣
٣. تريسي ٨٧
٤. د/ سميرة ١٢٣
٥. الجدة مهرى ١٥٥

١. الكلاب

في كل بلاد العالم تعيش الطيور والحيوانات، وكنتُ أرى أن كل حيوان ما هو إلا تجسيد للبيئة التي يعيش فيها فإذا كان حيوان ضعيف فأهل تلك البيئة ضعفاء، وإذا كان حيوان قوي ونظيف، فأهل تلك البيئة سيكونون أقوياء، وإذا كان حيوان مكار أو لئيم فبالتالي أهلها سيكونون كذلك .. وهكذا .. فمثلًا من المستحيل أن تجد الطيور تحلق فوق رأسك أو تقف على كتفك في ميدان رمسيس أو التحرير لكن يحدث ذلك في لندن وفي مدن أوروبية كثيرة.

كنتُ أرى الكلاب وكأنني أرى نفسي، نعم! أرى نفسي نفس الطباع .. السلوك .. التعامل حيث نتلقى معاملة واحدة، ثمة أشياء كثيرة تجمعنا تحت وصف واحد وهو "التخلف"، وعندما يتطور الكلب في مصر سيتطور معه الإنسان المصري، عندما يشعر الكلب البلدي بالقوة والكرامة سيشعر معه هذا الإنسان بالآدمية.

وقت ما بدأت أنتبه للكلاب بشكل عام من شدة التشابه بيننا، حتى إنني فكرت أن أعد دراسة عنهم .. شيء عجيب فعلًا. تأمل الكلب المصري والإنسان المصري. ستجد الطباع واحدة، والمعاناة واحدة. كانت هناك مجموعة من الكلاب البلدي يقطنون في شارع راقٍ، وكانوا عبارة عن أسرة كبيرة، وكان بينهم كلب كبير في الحجم والسن ما زلت أتذكر ذلك الكلب الشرس مع المصريين، وكيف كان يقترب منهم وهو يصدر زمجرة شديدة استعدادًا للانقضاض على هذا المصري الذي عبر من الشارع صدفة "وعادةً الكلب عندما يشاهد كلب مثله سرعان ما يدخل معه في معركة عنيفة، وكنت أتساءل هل الكلاب يشاهدون كثير من المصريين كلاب ولذلك يبادرونهم العداء والوحشية؟!"، وكان ذلك الكلب يأتيه الطعام وهو جالس، وكان لا يجرؤ أي كلب أو كلبة بالاقتراب منه أثناء الأكل، ووقعت على تلك الأسرة الدراسة التي كنتُ قد أعددتُ لها، وكان أول شيء يحدث لي عندما فكرت في المرور من ذلك الشارع هو أن هرعوا نحوي في وحشية، وصوت نباحهم يدوي في أذني، ولولا سرعتي المعهودة لكانوا مزقوني، وحاولتُ مرة أخرى أن أذهب من ذلك الشارع. لكن حدث شيء عجيب، وهو أن سبقني رجل بلوند، فوجدت الكلاب قد التفَّت حوله وقد بدا عليهم السعادة حيث انطلق الكلب

الكبير ليجلس أسفل قدمه وبدأ يلعق بلسانه الحذاء في سعادة بالغة بينما الكلاب الأخرى تسابقت على لعق ملابسه وحذائه، ثم جلس على ركبتيه وداعبهم قليلًا ثم ذهب. وذهبت أنا من بعده لأجد نفس المعاملة السابقة وهي الركض خلفي .. فلماذا؟! هذا هو السؤال .. غير أنني شاهدت الكلاب في وجود البلوند تلعب مع القطط .. وتلك ألفة ليست عادية، لكنهم استطاعوا أن يجعلوا بينهم ألفة، ونحن لم نستطع أن نتعايش.

****

كان لي صديق يدعى "بيون" من هولندا، وكانت الكلاب تعامله معاملة البلوند وهي المعاملة الحسنة .. أما أنا فكانوا ينظرون لي بـ "كره" عندما يجدونني بصحبته، وكثيرًا ما كان يلح عليَّ أن أقترب منهم. لكنني كنتُ أدَّعي أنني لا أحب الكلاب، وأنني أفضل أن تكون بيني وبينهم بضعة أمتار .. والحقيقة أنهم هم الذين لا يرغبون في صحبتي .. ولم أنسى ما حدث حينما كنتُ عائدًا في ذات مساء من ذلك الشارع فوجدت كلبة تقف في وجهي مباشرةً، وفور مشاهدتي رفعت أذنيها، وهزت ذيلها ابتهاجًا برؤيتي، ولما تحققت من كوني مصري نكست ذيلها، وتقلصت عضلات وجهها وقذفتني بنظرة

احتقارية .. نعم احتقارية، ما زلت أتذكر تلك النظرة التي تجمع بين الاحتقار والسخرية وذلك حدث بالفعل، وليست مبالغة مني، ثم أطلقت النباح لتجتمع الكلاب حولي ليركضون ورائي، وكنت أتعجب لماذا هذه المعاملة والإصرار على العداوة الشديدة والاستعداد الدائم للنيل مني؟! لماذا تُعاملني الكلاب على هذا النحو؟ هل لكوني مصري؟!

الإجابة: نعم.

وكيف استطاعت أن تفرق بيني وبين البلوند .. هل الرائحة؟

ـ نعم الرائحة، إن رائحة البلوند تخلو من العداء لهم، أما رائحة كثير من المصريين فهي العداء نفسه .. استطاعوا أن يميزوا بيننا .. كل ذلك صّعد الأمر في رأسي وفكرت حتى توصلت إلى فكرة لا بأس بها، ذهبت إلى «بيون» وطلبت منه أن يُعيرني معطفه.

فقال لي: لا بأس غدًا بعد أن آتي به من المغسلة تأخذه.

قلتُ له بإصرار: أريده هكذا.

قال لي وهو يمط شفتيه: حسنًا .. خذ.

في نفس الوقت وبعد أن خرجت من بيته ارتديت معطفه وذهبت

إلى ذلك الجمع من الكلاب. وحدث شي عجيب، فور مشاهدتي أقبلوا عليَّ وهم سعداء بحضوري حيث عبَّروا عن ذلك بلعق حذائي والشب فوق صدري، وظلوا يلتفون حولي وقد بدا على ملامح وجوههم السعادة .. وإن كانت تتخللها نظرات الشك المصوبة إلى وجهي، وظل كلبًا قابعًا يلعق في حذائي فتملكني الغيظ .. بالأمس كان يركض ورائي بوحشية والآن يلعق حذائي .. تراجعت بضعة خطوات ثم اندفعت بسرعة نحوه وركلته بقوة، انتفض وظل يعوي وهو يتحقق مني. لم يحدث أن بلوندًا ركله "أعتقد أن هذا الكلب سيعاني من تشتت وسيعيد النظر في أشياء كثيرة". وانصرفت .. لقد وصل الحال بالكلاب البلدي أن يميزوا بيننا وبين البلوند. إن رائحتنا تمثل لهم الكراهية، رائحة تخلو من العطف، من الإنسانية، أما البلوند فلهم رائحة أُخرى يستريحوا لها، وهكذا تجمعنا تلك الصفة نحن وهم الذين يتشبثون بالبلوند من أجل مسحة عطف، أو وجبة غذاء مغلفة صالحة للأكل، أما نحن في أشياء مماثلة .. وغير ذلك كثير من تلك الصفات التي تجمع بيننا، كانت الكلاب عندما تشاهد كلب غريب تهرع نحوه وتجتمع على تمزيقه دون رحمة، ونحن لا نستطيع أن نتحاور دون أن ينتهي الحوار باحترام آراء الآخرين، ولكن سرعان ما ينتهي بالتطاول بالأيدي، نحن لا نفهم لغة الحوار وأبسط شيء ممكن

تستدل به على ذلك "اتهم أي شخص أمامك بأنه لص ستجد الناس اجتمعوا على ضربه دون أن يتفهموا الحقيقة"، لأننا ببساطة نشبههم في ذلك التفكير، لكن عندما يشاء الله أن يمر كلب من الممكن أن يكون بلدي لكن في صحبة امراة أو رجل بلوند فإن الكلاب تنطلق نحوه، لكن أول شيء يفعلوه هو أن يعلنوا استسلامهم بإشارة منهم وهي تنكيس الذيل ويجلسون على الأرض طوعًا، وكانت الكلاب البلدي تنقسم إلى طوائف .. منهم القوي الذي تبدو قوته في محيط مسكنه .. ومنهم الضعيف الهزيل، ومنهم المرفه الذي تربى على أيدي بلوند وتلذذ بالطعام الجيد والرعاية الممتازة، ومنهم المتسول، والمريض، كنت عندما أشاهد الكلاب في الشوارع أحاول أن أتابعهم بدقة، كنت أجد كثير من الكلاب المتسولة في شوارع القاهرة. وكان بعضهم يبدو عليه الانكسار حيث تجد الشعر الأبيض منتشر عند محيط الفم، وتجده يمشي ولا يتوقف عن الالتفاف حوله وكأنه يتوقع الأذى في أي لحظة، فهم يشبهون كثير من الفقراء الضعفاء الذين يتسولوا في شوارع القاهرة .. نفس القهر .. والخوف .. والقلق .. كنت أشاهد إعلانات مطبوعة على ورق فاخر ومثبتة على الأشجار والجدران في الشوارع، وقد صور فيها كلب تجده في الصورة سعيد وأنيق مبتسم للعدسة تُطوق عنقه ببيونة حمراء، وتحت منه مكتوب

"فُقدَ من بضع ساعات من يجده له مكافأة ألف دولار."

فى يوم من تلك الأيام الملعونة، كنت أنتظر "بيون" صديقي الهولندي أمام بيته، فخرج لي وكان يحمل فوق كتفه كيس نايلون كبير مملوء بالملابس القديمة وقال لي: "عماد" تعالى معي نضع هذا الكيس في المزاد وبعدها نذهب.

قلت له: أين هذا المزاد؟

قال لي: عند مسز "جونز"، هيا.

ذهبت معه وكنا نتحدث في أمور عادية، وكنت قد عاونته في حمل ذلك الكيس الثقيل المملوء بالملابس القيمة الغالية. وصلنا إلى فيلا مبنية على الطراز الإنجليزي بها حديقة واسعة، وفور وقوفنا في الحديقة وجدت مجموعة ضخمة من الكلاب البلدي النظيفة وحول أعناقهم الأحزمة الواقية من الأمراض يتحركون في رشاقة وتبدو عليهم البهجة. وأيضًا شاهدت مجموعة ضخمة من القطط البلدي النظيفة تجلس وسط الكلاب في هدوء، وقد تعجبت من هذه الألفة التي تجمع بينهما وهم ألد الأعداء لبعضهما .. خرجت امرأة في منتصف الخمسينيات، نحيفة ومتوسطة الطول لها وجه طويل تبرز عظامه وعينان كبيرتان فوقهما نظارة طبية كبيرة، تاركة شعرها

الذهبي مهوشًا، كانت تدخن بشراهة وكأنها متوترة، استقبلت "بيون" بوجه بشوش وسارعت وهي تمد يدها له بالتحية، شدت على يده وشكرت له حضوره. ثم التفتت لي فقال لها: هذا صديقي عماد؛ أومأت برأسها ومدت يدها تصافحني، وانصرف "بيون" ليتحدث مع بعض أصدقاءه الذين شاهدهم هناك بالصدفة، ووجدتها فرصة لمعرفة المزيد عن هذا المزاد .. فبادرتني قائلة:

ـ هل تستطيع مساعدتي؟

قلت لها على الفور: نعم أستطيع.

اصطحبتني إلى صالة كبيرة ممتلئة بترابيزات كبيرة مفروش عليها ملابس وأكسسوارات، وفي جانب منهم وجدت دراجات وأدوات منزلية خاصة بالمطبخ. أشياء غالية تباع بأبخس الأسعار. فقلت لها مسز "جونز": كيف أستطيع المساعدة؟

قالت لي:

ـ تساعدني في نقل هذه الأشياء إلى الحديقة.

وجاء "بيون" يعاوننا وبعد أن انتهينا وجدتها تفتح باب الفيلا على مصراعيه، وشاهدت عدد كبير من المصريين ينتظرون في الخارج،

وبعد أن أذنت لهم بالدخول تدافعوا في همجية ووحشية ونسفوا المزاد في أقل من ساعتين وكانوا جميعهم تبدو عليهم ملامح الترف من امتلاك سيارة، وشقة في ذات المنطقة، كنت أعرف الكثير منهم الذي يتابع باهتمام النشرة الشهرية التي تلصقها المدرسة الأمريكية على المدخل الرئيسي تحدد فيه موعد المزاد، كم كانوا همج. وكنت أتساءل ألم يقل الله في الآية الكريمة "لا تبخسوا الناس أشيائهم" كانوا مرهقين جدًّا في بخس الأشياء لدرجة أن قطعة الملابس السينيه كانت تباع بخمس جنيهات ناهيك عن الأدوات المنزلية، انتهى المزاد وجلسنا في الحديقة وانشغلت عنا المدام بعد النقود ثم جاءت وألقت بنفسها على المقعد وهي تقول: ما زلنا في حاجة لأكثر من مزاد.

قلت لها بفضول: أين تذهب هذه النقود؟

قالت لي وقد شاع في وجهها السعادة: أوه .. تذهب إلى عمل خيري كبير.

وتساءلت بدهشة:

إذا كان الفقراء هم أولى الناس بهذا المزاد .. ورغم ذلك ليسوا متواجدين؟

قالت لي: أنهم لم يأتوا؛ وأنها دائمًا تكثف في الإعلانات، لكنها لم

تجد منهم أحد.

ـ لأنهم ببساطة لا يعرفون طريق المدرسة الأمريكية، وليست لديهم اللغة لفهم الإعلانات .. ثم استطردت وقلت لها:

ـ ها .. ما هو العمل الخيري الذي تجمعي له الأموال؟

قالت لي: ننقذ الكلاب من الموت.

ـ كيف؟! هكذا قلت بمزيد من الفضول.

ـ نأتي بالأطباء ونجري لهم عمليات إزالة الرحم؛ لكي يتوقفوا عن الإنجاب.

ـ لماذا؟

ـ بدلًا من الموت.

ـ الموت؟!

ـ نعم، تعرف كم كلب يموت في العام هنا في مصر؟

ـ قلت لها: لا أعرف.

ـ قالت لي: آلاف الكلاب يموتون من التسمم أو من دهس السيارات.

ـ حقًا! هكذا خرجت مني بسخرية، ولم يحسها سوى "بيون"

الذي قذفني بنظرة ذات معنى، فهو يعرفني جيدًا؛ بينما هو كان يتابع حديثها بتأثر شديد.

قالت لي: نطلب من الأمريكان والأوروبيين القاطنين في المعادي بأن يتبرعوا لنا بملابسهم القديمة وبعض المستلزمات، ونحن نتولى البيع.

ـ فكرة ممتازة، تهلل وجهها بابتسامة عريضة توحي بالرضا.

قلت لها: مسز "جونز". لكن ذلك ممكن يؤدي لانقراض النوع.

ـ ينقرض أحسن من أن يموت، أو يعيش تعيس، انظر إلى الكلاب من حولنا والسعادة التي تملأهم، والرشاقة التي يبدون عليها، ثم استأنفت: تعرف يا "عماد" أن ذرية القط في العام ..كام؟

ـ لا.

ـ تقريبًا ألفين وخمسمائة قط وقطة، كلهم إلا قليل منهم يموتون، نحن لدينا شرائط فيديو تسجل هذه الجرائم وتصور الكلاب والقطط مقتولين في الشوراع، ولما تم الكشف عليهم كان نتيجة تناول السموم المدسوسة لهم في الطعام؛ واستطردت بحزن:

ـ شي مؤسف.

قلت بيني وبين نفسي..إن الإنسان في ذلك البلد لا يتساوى بالكلاب..بل إن الكلاب أرقى بكثير، على الأقل تهتم بهم المنظمات العالمية لحقوق الحيوان، بينما الإنسان المصري بالذات لا يهتم به أحد، نظرت لها وفي نفسي شيء، ربما الذي منعني من قوله هو شدة المأساة التي يحياها المصريون، كنت أود أن أقول لها: تعلمي ما هو سر تفشي "فيروس سي" عند المصريين؟ السر يكمن في المستشفيات الحكومية التي لا تهتم بأبسط الأشياء وهو التعقيم؛ كنت أود أن أقول لها: لدينا مستشفى رائدة في خرق الإنسانية وتفشي الأمراض وهي مستشفى "القصر العيني" التي فور تخرج الأطباء يذهبوا ليتعلموا في أجساد المرضى الفقراء، وكيف أن كانت هناك حالة تعاني من تسوس شديد في الأسنان وعندما تم فحص الحالة من قبل طبيبين حديثي التخرج، قررا أن يستخرجا الضرس من خارج الفم بطريقة فجة متخلفة لا تصلح أن تكون نكتة وهي أن يفتحا ثقب في الخد من الخارج ويقوما باستخراج الضرس..حينها ذهبت لأحد المسؤلين وقلت له: عندي مشروع هائل سيُدِر ربح عظيم على هذه المستشفى.

قال لي: وما هو مشروعك؟

قلت له:

ـ ننشر إعلان في الصحف الأجنبية نقول فيه أن المستشفى على استعداد أن تستقبل الطلبة الأوروبيين ليتعلموا في أجساد المصريين، ثم تركته؛ لأنني كنت أعرف رد فعله ولذلك قررت الرحيل قبل أن أشتبك معه في معركة...أردت أن أقول لها، إن هذه العمليات من الأفضل أن تُجرى للمصريين ليتوقفوا عن الإنجاب وعن الجهل والتخلف، أردت أن أقول لها أن الجهل سحق مفهوم الإنسانية عند المصريين، وأن الإنسان الذي كرمه الله أصبح هذا الكلب الذي يلهو حولنا في سعادة ورشاقة أفضل منه ربما يتلقى تعاليم وآداب لا يحظى بها الكثيرين في بلادنا، كنت أود أن أقول لها أن زيارة واحدة لمستشفى حكومي كفيلة بأن تصيبك بالذهول والإحباط، وأن الطب في مصر أصبح وسيلة سريعة لكسب المال بعد أن أصبح الشعب كله مريض، وإذا أردتي أن تتعرفي على قيمة هذا الشعب فاذهبي إلى المستشفيات؛ لأن المستشفيات تعكس قيمة الإنسان، كنت ساخط على تلك الأمريكية، وكنت أود أن أعنفها، لكنها رحيمة إلى حد ما، وكنت أشعر بأنها تضحك على نفسها أو تتظاهر بتلك الروح؛ لتُبرر هي وغيرها من البلوند ما تفعله بلادهم في حق الإنسان من جرائم تحت مسمى الديمقراطية وحقوق الإنسان؛ كم أنا ساخط عليها، وقد يرى شخصًا ما هذا العمل ضرب من الهراء، لكني أراه شيء

مخزي لنا نحن، ويدعو لكثير من التساؤل والفهم. هناك أشياء لا يهتم بها المصريين ويروا أنها أشياء طبيعية؛ مثلًا الزواج في الريف كيف يتم، البداية إذا كان المأذون رجل يتقي الله سيبدأ في رفض عقد القران بين هذين الطفلين، ويخرج هنا أولياء الأمور معترضين على قرار هذا المأذون فيلجأوا إلى حيلة معروفة في القرى والنجوع وهي أن تُكتب ورقة صغيرة تقرر زواجهما ثم تتم الدخلة، وأحيانًا ينكر هذا الشاب بعد ذلك الزواج، وتبدأ الأسرة في صراع مجتمعي عقيم..والسؤال هنا لماذا عجلوا في تلك الزيجة؟ لكن نحن برعنا في تدمير أنفسنا بأنفسنا، شيء عجيب وجهل يجلب الخراب للعامة وليس للخاصة فقط. قلت لـ «بيون» وأنا أزفر بتنهيدة عميقة: أنا ذاهب؟

قال ل: هيا بنا؛ وودعتنا تلك المرأة بكلمات رقيقة ثم انصرفنا.

وجاء يوم عصيب حيث اشتكى أحد السكان المصريين من دوشة تلك الكلاب ويبدو أنه كان مسئولًا فصدر أمر بذهاب سيارة «الدوتش»، وظلت البنادق تفرقع طوال الليل في البارود المصوب ناحية الكلاب التي كانت تسقط قتيلة، حتى نزل الأجانب يصرخون ويسبون ويحملون الكلاب من فوق الأرض لسيارتهم وينطلقون بهم إلى مستشفى الكلب..النظرات تحمل كثير من المعاني: عرفتم لماذا

نكرهكم أيها المصريون؟ هذا هو المعنى الذي كان في عيون الكلاب المقتولة، وقفت وأنا أشاهدهم وهم يبكون من أجل كلابهم قلت «بأي عين ينظرون للموتى في بلادنا؟»

****

أعتقد أنني كنتُ صادقًا حينما عزمت على الزواج منها، ولكن بعد شهور قليلة شعرت بأنني مخطئ، وأن الذي أفعله ما هو إلا تضييع للوقت ليس إلا، إن الزواج مسئولية كبيرة، ولكن كثيرين في هذا البلد يجهل ذلك أو يرى الزواج في صورته المعهودة وهو النكاح فقط، لكن الزواج من وجهة نظري ونظر الكثيرين مثلي؛ هي المسؤلية بدمها ولحمها..حيثُ انطلاقة جديدة في حياتك تبدأ برفيق قد تكون اخترته على يقين، ولكن ما حدث كان يبشر بالقلق والخوف من المستقبل، وسرعان ما تشعر بارتطام في حائط فولاذي يُسمى «الواقع»، لتشعر بعد ذلك بأنك قد أخطأت وأنك لا بد أن تعالج هذا الخطأ، كنتُ أعمل في السياحة بمدينة شرم الشيخ في أحد المنتجعات، وكانت السياحة منتعشة إلى حدٍ ما، حتى وقع حادث إرهابي..وهنا حاصرتنا الشرطة المصرية، وهاجمت منازلنا بتهمة الاشتباه فينا، مكثنا في قسم الشرطة ليال طويلة من الألم والخوف، وتعاملنا كمصريين وهذا يوفر

عليّ كثير من التفاصيل الموجعة، وكنت على يقين بأن «شرم الشيخ» ليست بلادنا، كنا نتعامل على أننا أغراب من بلاد فقيرة حيث الإهانة تطول العائلة بأكملها، وخرجنا من شرم الشيخ كلها بعد أن تم فصلي وفصل الكثيرين نتيجة الركود في سوق السياحة.. لا أعتقد أنني يوم ما سأتوقف عن سب المسؤلين في هذا البلد، إننا نحيا في بلد متخلف، بلد أشبه بحذاء ضخم كالذي يرتديه رجال الشرطة..حيث يضغط بكل قوه فوق أعناقنا، إن مصر لن تتقدم مهما حدث، ولا أعرف ما هو سر الانحطاط السياسي والإداري في هذا البلد؟..هل لأننا ليست لنا هوية؟ هل لأن الانحطاط في كل شيء أصبح آفة هذا الزمان؟ ..والتخلف عن الحضارات..وتراجع العلم، وبروز رموز الفساد على رأس المجتمع؟! والحقيقة أن مصر لن تنهض إلا إذا استيقظ العدل وأزاح من فوقه الغمة التي ألجمت صوت الحق بداخله، ولكن هذا البلد لا يعي معنى العدالة، وكنت أتعجب، كيف بلد بهذا الحجم وهذا الموقع الاستراتيجي بأن يعتمد على السياحة؟ نحن لسنا بلد سياحي، وكيف نكون بلد سياحي ونحن نفتقد أهم المقومات.. النظافة، والذوق، ولستُ أدري، لماذا الاعتماد كله على السياحة؟ ..إننا فشلنا في أن نكون دولة زراعية، أو صناعية، وأصبحنا دولة سياحية عقيمة ملوثة تحت رحمة عيل تافه يأخذ بضع آلاف ويلقي

قنبلة على السياح، فتتوقف السياحة، «السياحة خير لينا كلنا» جملة مستفزة وتبعث بالسخرية، كنت أتمنى أن تكون «الصناعة خير لينا كلنا»، «أو الزراعة خير لينا كلنا»، كنت أعرف سيدة من «نيوزيلاندا» جاءت إلى مصر للسياحة، قالت لي: أنا مصدومة في مصر يا «عماد».. لم أتخيل مصر بهذا الشكل.

قلت لها: وكيف كنتِ تتخيلين مصر؟

على الأقل..النظافة؛ كنت أظنها نظيفة، هناك ثلاث أشياء لو تغيروا لأصبحت مصر بلد عظيم.

ـ وما هي تلك الأشياء؟ هكذا قلت وكأنني أستنجد بروشتة للتخلص من مرض ما.

ـ **أولًا**: الزبالين الذين يضيفون للقمامة في الشوارع قمامة أُخرى بملابسهم وعرباتهم التي أشبه بوباء متنقل ينشر الوباء أينما ذهب.

ثانيًا: الجو سيء..لأن اختلطت المدن السكانية بالصناعية.. هناك مصانع بالقرب من هنا جلبت إلينا الأمراض ونشرت التلوث، وساعدت في رفع درجة الحرارة..

ثالثًا: الناس مش مؤدبين..بالأمس كنت ذاهبة إلى السوبر ماركت

وألقيت تحية الصباح على رجل الأمن الذي أعرفه وأتبادل معه الحديث في بعض الأوقات قال لي: مدام..مؤخرتك كبيرة جدًا ..ما دخله هو بمؤخرتي كبيرة كانت أم صغيرة، هذا فضول؛ وأكثر من ذلك بكثير يحدث معي، المصريين مش مؤدبين يا عماد..سافرت هذه المرأة بعد أن قطعت الإجازة حيث قالت لي إنها ذاهبة إلى «جنوب أفريقيا» لتستكمل الإجازة هناك...

وهذا ما جعلني أكره الزواج جدًا؛ لأنني ببساطة لا أريد لأبنائي أن يعيشوا في هذا المجتمع الفاسد، «دائمًا أرى أن الكلاب نموذج، فعندما تتزوج الكلاب وتنجب يصبح على الفور مصير صغارهم الشارع والتسول»، وكذلك الفقراء، كنت أشاهد شباب صغير جدًا يتزوجون وينجبون ويلقون بأبنائهم في الشارع، وهذا لأنهم ليس لديهم أدنى فهم عن الزواج سوى بضعة ليالٍ قضاها في حب تلك الزوجة، وهم يحملون في عقولهم أحلام المراهقة التي لا جدوى منها، أو شيء لا بد منه، لا يكلف نفسه التفكير في كيفية إتمام الزواج، هكذا يتم الإقدام على هذه الحياة المهمة في مجتمعنا، وتنتهي معظم هذه الزيجات بالطلاق، وتنتشر فوضى التخلف، ناهيك عن ثقافة التربية التي تسود المجتمعات الفقيرة، بعد أن أصبحوا يروا أن القضية أصبحت صراع بين الأغنياء والفقراء..وهذا ما يتمناه أي

حاكم فاشي ليجعل من الفقراء قنابل موقوتة في وجه الأغنياء..

إن الفساد يشمل كل شيء في مصر، انظر إلى التربية التي تسود المجتمع المصري أغنيائه وفقرائه، ستجدها غالبًا فاسدة «زيجلر» ذلك الرجل الألماني العملاق ذو الشارب الكثيف والوجه الحاد.. يمشي وسط أسرته بشموخ وكبرياء، هو بالفعل أشبه بقائد عظيم، وغير ذلك تجده مرح في أحاديثه، جاءني ذات يوم وكنت حينها أعمل في «الدبليو ماريوت» «عامل المخزن» المسؤول عن السيارت ومستلزمات اللعب، كان لديه ابن صغير يدعى «مارك» لم يتجاوز عمره التسعة أعوام، وجدته حاملًا فوق كتفه الصغير حقيبة كبيرة ممتلئة بعصى الجولف بجانب عدد كبير من كرات الجولف البيضاء الثقيلة، وهكذا حمل الحقيبة البديلة عن الترولي الذي تستطيع جره بسهولة، بدأ في خطواته غير ثابتًا بعد أن أحدث ثقلها ترنحًا في خطواته، أسفر ذلك عن تسلخات حول العنق وأعلى الكتف ..تقدمت ناحيته فى محاولة لمساعدته فوجدت. مستر «زيجلر» ينهيني بشدة، قلت له:

ـ م/ زيجلر لماذا لم تستدعيني لحمل هذه الحقيبة بدلًا من هذا الطفل ..أنا في خدمتك؟

قال لي:

ـ هو قرر ذلك .. أراد أن يقوم بهذا العمل مقابل دولارين.

تعجبت كثيرًا، وتساءلت كثيرًا، وهنا .. لا تتعجب حينما تعلم أن ألمانيا العظيمة الصناعية، قامت بعد الحرب العالمية الثانية على أكتاف النساء والأطفال .. لا تتعجب، بل تعجب من مجتمعنا الذي يبذل قصارى جهده في ضياع نفسه.

وكم تستفزني تلك الإعلانات التي تصور مواطن فقير في منتهى السعادة؛ لأن الجمعية الخيرية قامت بتوصيل خط مياه ليشرب منها، إنه مسكين لا يعلم أن من أبسط حقوقه الآدمية أن يشرب مياه صالحة للاستهلاك الآدمي، أو إعلان تجد فيه المواطن يعرض همومه ويكشف عن فقره المدقع من أجل التبرع لعلاجه، كل تلك المشاهد تستفزني بشدة، لقد أسندت الحكومة مهامها للجمعيات، تنصلت من واجبها الحقيقي، وربما كثير من أولئك الجمعيات تتاجر بالفقراء لمصالحها .. كم هي سلعة رائجة في بلادنا! .. تحدث عن الفقراء وعن حقوقهم ستجدهم بجوارك يساندونك باستماتة .. هذا هو ناتج الجهل والفقر، أما في بلاد البلوند الأمر مختلف، لقد فهموا معنى الإنسانية، حتى وإن كانت إنسانية البلوند فقط، ولكن حصنوا

تلك الإنسانية بالعلم؛ ليتصدوا لأي فاسد، وكم كنت أتمنى لو أن أغنياء مصر يسعوا للإصلاح الذي تجاهلته الحكومة ويقوموا بتوعية الفقراء، لكن للأسف هنا الأمر مختلف ننظر لهم بعين أخرى تصنفهم تصنيف عنصري .... في بداية القرن العشرين كانوا أغنياء فرنسا الذين يقطنون في الريف يفعلون شيء راقي جدًّا .. كانت نساؤهم تذهبن إلى الفلاحات، وتعلمهن القراءة وكيفية إدارة المنزل وكيفية تربية الأولاد، وكانت النتيجة بلد كبير صناعي يشارك في تقدم العالم، أما نحن بلد فقير فاسد من العالم الثالث سمعته السيئة تطول الكل لا تفرق بين غني وفقير وجاهل ومتعلم، وهذا ما كان يُطلق عليه «القضية القومية»، الزواج يحتاج إلى أموال كثيرة وعقول ناضجة، ويجب أن تكف هذه الألسنة عن العبث بهولاء الشباب بكلمات عقيمة جلبت علينا الخراب ومبررات عقيمة لا أعرف من أين يأتون بها ويخدرون بها هؤلاء؟ تجد من يقول: تزوج وستجد الطريق ممهد؛ لأن هذا نصف دينك، ويكون المقبل على الزواج شاب ليس لديه مليم يتسول ليتداين من هنا وهناك؛ لكي يتزوج ثم يتعثر في السداد ومن هنا تنشأ المشكلة، وكنت أتساءل هل نصف الدين تم حصره في غض البصر؟! لا أعلم؟ ... وكنت أسمع ما يدعو للخوف، كان يقول البعض أن تعدادنا شيء يبعث الخوف في قلوب أعدائنا، إنه

مسكين لا يعرف أن الجيوش الآن لا قيمة لها، ولكن القيمة كل القيمة في العلم والتكنولوجيا، بضعة طائرات من الممكن أن تنهي حياة الملايين وتدمر البنية التحتية في بضع دقائق، «ربما رجل واحد من داخل غرفة يدير حرب كاملة لا تكلفه سوى الضغط على عدة مفاتيح» .. إنني عزمت حينما أتزوج وأنجب أن ألحق أبنائي بالمدارس الخاصة، وأن أنجوا بهم من هذا التعليم العقيم الذي دمر عقول المصريين. إن الزواج بالنسبة لي شيء خطير، لا بد من التخطيط الجيد له لينجح .. ويستمر.

ـ أميرة، معتقدش إني هقدر أكمل معاكي، تقدري تشوفي حياتك.

ـ إنت مش ممكن تكون طبيعي، إنت، إنت..

بالطبع كانت كلمات قاسية ظلت ترددها وترميني بها، ولكن الحقيقة إنني أقبلت على الفرار بصدر رحب راض تمامًا، لقد نجوت من العيش داخل فيلم عربي سخيف، إنني ألمس الواقع بيدي وأعرف حقيقة ما يدور حولي ولذا فإن القرار جاء في الوقت المناسب .. لم تكن «أميرة» فتاة سيئة بل كانت رائعة في الخلق والمظهر حيث كانت تشبه الفراعنة لها وجه طويل وعينان واسعتان وبشرة قمحاوية لامعة، وقوام ممشوق وكانت تبدو كعارضة أزياء .. لكن كل ذلك

لم يجعلني متشبث بها، لأن الواقع شرس لا يرحم .. وحمدتُ الله أننا لم نكن قد تزوجنا وبيننا أطفال أو ركام من هذه المشكلات السائدة في هذا الزمان ..

****

في صيف عام ٦٩٩١ كنتُ قد أتممت السادسة والعشرين من العمر، وكنت متألقًا حيث كنتُ أعمل سائق لدى رجل أعمال، وكان رجل عظيم، كان يحبني، وكان يحاسبني ببزغ حتى إنني كنتُ أشعر بأنني ابنه وليس سائق، ومن حُسن حظي أنه كان متزوج من امرأة إنجليزية وليس لديه أبناء، وكان عند سفره للخارج يأخذ مقاس ملابسي ويأتيني بملابس أنيقة وغالية جدًا، وغير كل ذلك كان يجلسني معه في مكتبه الفخم لأستمتع بخبرته وثقافته الغزيرة، لم يقل لي من قبل اخلع حذاءك في الخارج أو يخشى من جلوسي على مقاعده الوثيرة أو دهسي للسجاد العجمي والشنواه الذي يكسو فيلته بالكامل. كل ذلك حدث معي من قبل، إلا من ذلك الرجل العظيم، كان يشبه الأوروبيين، له وجه ناصع البياض وعينان سودتان وشارب خفيف ينتشر الشعر الأبيض في فروة رأسه عند الأطراف، وكان يمتاز بأشياء كثيرة كلها إيجابية أهمها عدم السخرية

من الآخرين خصوصًا البسطاء وأيضًا حُسن الاستماع، فهو مستمع جيد، وفي ذات مرة قلت له بسذاجة مصتنعة:

ـ الشعب المصري ده عبقري جدًا.

ـ صحيح شعب بيفهم. هكذا قال باهتمام وهو يشعل السيجار الفاخر ذو الرائحة المثيرة.

قلت له: حضرتك عارف طبعًا أن الموظف الأمريكي ممكن يكون من أبرع مصممي البرامج على الكمبيوتر وميعرفش يصطب ويندوز.

ابتسم وقال لي: إنت عارف إيه هو سبب البطالة الحقيقي .. أو اللي بيساهم في جزء كبير من البطالة في مصر؟

قلت له: لأ، الصراحة مش عارف.

ـ بص يا بني: لو أن الأمريكي ده صطب نسخة ويندوز، هيبقى اشتغل شغل واحد غيره .. بياخد مرتب على كدة، لو أنا مثلًا سبتك تغير فردة الكاوتش لما تتخرم، هبقى بضيف شغل فوق شغلك ..

ـ بس ده من ضمن شغلي.

ـ لأ.. غلط ده مش شعلك.. إنت شغلك السواقة وبس، لكن لما ييجي عامل الكاوتش ويغيره، هيبقى عمل شغله، وقيس على كدة

كل حاجة كبيرة وصغيرة، شغل الفهلوة بوظ البلد، إحنا أجرمنا في حق نفسنا.

ـ إنت نفسك تعيش فين؟ هكذا سألني وكأنه يختبرني.

ـ في مصر.

نظر لي بدهشة قائلًا: ما إنت عايش في مصر.

ـ لأ، حضرتك.. دي مش مصر ..

قال لي: بكرة مصر هتتصلح .. هكذا تحدث من وراء نظرته الأوروبية، ثم قلت له:

ـ في كل بلاد العالم هناك تقصير .. لكن الحكومات دائمًا ما تلجأ لصاحب القرار «وهو الشعب». وهذا ما يجعل المواطن له قيمة، أما هنا لا نشعر بهذه القيمة؛ لأنهم ببساطة لا يعترفون بقيمة الشعب، رغم إنني أحمل بطاقة مصرية، لكن دائمًا ما بحثت عنها وكان مصير بحثي الفشل، ليس مطلوب مني أن أنتقد سياسة رجل فاسد، ليس مطلوب مني أن أعترض على معاملة موظف، لكن مطلوب أن أثني على كل فاسد وأسبح بفساده، وأن أرشي كل موظف ليقوم بوظيفته.

زفر بتنهيده عميقة قائلًا: تفاءل يا عماد.

خطر ببالي أن أقف في مواجهته وأقول له:

ـ أنت تحمل باسبورًا إنجليزيًا من المستحيل أن تشعر بمأساتي.. لكن احترامي وتقديري له جعلني أومأت برأسي ثم صنعت ابتسامة معجونة بحسرة شديدة ..

وكالعادة سوء الحظ يلازمني في كل وقت توفي هذا الرجل العظيم إثر أزمة قلبية، وبقيت بجانب زوجته بضعة أيام حتى قررت الرحيل. تصّرفت في أثاث المنزل، أو تبرعت به .. وقفت في بهو الفيلا تسترجع الذكريات ثم اقتربت مني واحتضنتني وهي تقول بنبرة مؤثرة: كم سأفتقدك عماد .. قلت لها لا تنسي أن تبعثي لي برسائل لأطمئن عليكِ .. تحركت السيارة الليموزين من أمام الفيلا ووقفت أنظر لها وكأنها كانت تسحب روحي معها، سافرت إلى بلدها، وانتهت الأحلام التي كنت أرسمها لأحققها معه، وكانت هذه الأيام من أسوأ أيام حياتي حيث افتقدت أشياء كثيرة بعد رحيل هذا الرجل وكنتُ أعلم جيدًا أنني لم أقابل رجل مثله في تواضعه ورؤيته للأشياء بمفهوم مستنير يعرف آخر الدنيا وأولها أتذكر له أشياء لا أستطيع نسيانها وكثيرًا ما أذهب لأدعو له بالرحمة، وعدت أستشعر العنصرية من جديد ..ستظل العنصرية في مصر إلى أجل غير مسمى،

العنصرية بين أصحاب البشرة السوداء والبيضاء، وبين الأغنياء والفقراء، وبين المثقفين والجهلاء، وهكذا ستظل الفجوة بينهم في تضخم، ولن يأتي وقت تتحقق فيه العدالة الاجتماعية مثلما حدث في أوروبا وأمريكا بخلاف عنصرية اللون التي يعاني منها الكثير في أنحاء العالم وما زالت تعشش في عقول العنصريين، ولن يأتي من يأخذ الناس إلى الثقافة والعلوم .. ولكن يأتي ما هو فاسد ليفسد الحياة في مصر .. وهكذا أشعر أن مصر ليست بلدي مثلي فيها كمثل السودانين والصومالين الذين يواجهون العنصرية، فأنا فقدت عملي موخرًا وأصبحتُ متسولًا، وأيضًا فشلت في التعامل مع المصريين للمرة الألف.

****

فصل الصيف من الممكن أن تستمتع فيه بعد أن تحذف منه بعض المقادير التي أضافتها له بعض العوامل السيئة، مثل الازدحام الشديد، الذي صنعته الحكومة بنفسها حيث كدستنا في القاهرة. أصبح كل شيء في القاهرة فقط، إذا أردت أن تستخرج باسبور لابد أن تذهب إلى لقاهرة، و إذا أردت أن تنجز أية مصلحة حكومية فاذهب إلى القاهرة، وإذا أردت أن تموت من الغيظ اذهب إلى القاهرة، فشل

في التخطيط وفي كل شيء ورفض وليس عجز على خدمة المواطن. ومن هنا تأتي أيضًا الأمراض .. الضجيج .. استنشاق العادم من السيارات، الأتربة .. الحشرات والذباب التي خلفتهم القمامة المتراكمة على أرصفة الطرق، وكل هذه العوامل تخلق بداخلك شيء من التوتر والانفعال، وكان الطريق لا ينقصه شيء من تلك المقادير، وعندما وصلت إلى منطقة «العجوزة» وقد أنهكني حر أغسطس حيث كانت لديّ مقابلة مع طبيبة تريد سائق وتم اللقاء هكذا .. ذهبت إلى العنوان وفور وصولي، وقفت بضع ثوان أمام العمارة التي تقطن فيها وكانت عمارة ضخمة بجوار مطعم «نعمة» .. فقابلني البواب الذي اصطحبني معه لنقف أمام البوابة الضخمة ثم في حركة بطيئة أخرج مفتاح الباب ثم أداره في الباب نصف دائرة ليُفتح على مدخل كبير، ثم صعد معي وكان رجل كبير في السن يتكئ ويسعل في آن واحد. ضغط على الجرس ففتح عن عاملة بادرتني بابتسامة، ثم أنبأها البواب قائلًا:

ـ قولي للدكتورة السواق برة.

دخلت على الفور، وبعد ثلاث دقائق جاءت الدكتورة .. فتاة صغيرة وربما تكون حصلت على الدكتوراة حديثًا كانت ترتدي

تريننج صيفي برز ملامح جسدها الممشوق وكانت تتدلى من فوق عينها نظارة طبية رقيقة تستقر على أنفها الصغير، تناولت من على منضدة صغيرة وراء البارفان علبة سجائر «مور» تناولت منها سيجارة وأشعلتها ثم مسحتني بنظرة واحدة ثم وقفت مستندة على الباب قائلة:

ـ كنت شغال قبل كدة ولا دي أول مرة؟

هكذا سألتني دون مقدمات ..

ـ لأ، دي تاني مرة.

ـ بتعرف تسوق ولا خيبة وهمشيك زي ما اللي قبلي مشوك ..(كانت تبدو كالذين يقال عنهم: هي كلامها كدة بس قلبها طيب)، وهذا نوع سخيف من الناس يريد من الكل أن يخضع لرغباته وأن يكون تحت أمر مزاجه.

ـ حضرتك تقدري تجربيني .

ـ صورت البطاقة؟ وهكذا كانت تتكلم وكأنها مغصوبة على الكلام.

ـ اتفضلي يا دكتورة. ناولتها البطاقة، ثم مسكتها من طرفها

ونظرت فيها ثم قالت:

ـ كويس إنك ساكن قريب من هنا .. عشان أهم حاجة عندي المواعيد .. إنت فاهم طبعًا؟

ـ أيوة يا دكتورة فاهم .. وتحت أمرك..

ـ طيب انزل استنى تحت عشان أجربك.

ـ حاضر.

وبعد ما يقرب من الساعة جاءت وقذفت في يدي المفتاح، وفتحت الباب الخلفي وجلست، وجلست أنا على عجلة القيادة، واستفتحت بالله وأدرت الموتور وبدأت أمشي بإنسيابية؛ وبعد ما خرجت من الشارع الذي تقطن فيه، شاهدت في المرآة قدميها بجوار أذني ودخان سجائرها يلفح قفايا، نزلت من السيارة وذهبت، صاحت فيّ: إنت يا مجنون رايح فين؟ لكني لم أبالي واستكملت السير. والواضح أنها كانت تعاني من حالة نفسية، وأعتقد أن غالبية المصريين يعانون من نفس الحالة. وللأسف لم يكن لدي قدرة على استيعاب هذه الحالات، كنت أتمنى أن أتغاضى عن تلك الأشياء لأستمر في العمل. لكن لا أستطيع أن أتخلى عن كرامتي .. الليالي مملة وطويلة والنهار يضيع في النوم .. السحب بعيدة .. أحيانًا تحجب القمر. تسير ببطء وأيضًا

بحرية، تنطلق إلى كل بقاع الأرض دون قيود، يستظل بها الناس. تشاهد مدن نظيفة وأخرى ملوثة، ليس هناك من يمنعها عن التحليق .. لكن في نفس الوقت الذي تستمتع فيه بقرب القمر .. أيضًا تحترق من لهب الشمس .. هذه هي الدنيا ليس فيها من يستطيع أن يعيش سعيدًا حتى إذا كانت السحب. تمنيت أن أكون فراشة أتشبع بالحرية لكنني اكتشفت أن الفراشة ضعيفة جدًا ومن السهل إن أمسكها إنسان «مؤذي» فيضعها بين أصابعه ويهرسها.

****

في تلك العام وهو عام ٦٩٩١ كانت هناك حديقة في منطقة «المعادي» وكان يُطلق على هذه الحديقة «جنينة شل» نسبة لشركة «شل» المواجهه لها وأيضًا «شل شوب» الذي يقع أسفل هذه البناية الشاهقة الضحمة .. وكانت تتجمع في هذه الجنينة شباب وفتيات يجلسون في مجموعات كثيرة يشربون البانجو حيث كان عشب حديث لم ينتشر بعد، بجانب زجاجات الخمر الفاخرة التي كانت تأتي بها الفتيات البلوند. وزجاجات البيرة التي كان يأتي بها واحد مثلي، في هذه الحديقة تعرفت على كثير من الفتيات الرائعات من دول مختلفة وكن أكثرهن من إنجلترا. وكن من بينهن فتاة رائعة ليس لها مثيل في

هذه الجنينة. وكثيرًا ما كانت تقذفني بنظراتها الملتهبة وكانت دائمًا عارية تستكفي بقطعتين فقط قطعة على ثديها والأخرى على مؤخرتها وكنت أتابعها بشغف إلى أن جاءت ليلة رائعة حيث كانت الجنينة كلها عائلة واحدة نشرب من سيجارة واحدة ومن زجاجة واحدة وكأننا تحت الماء وهذا هو الأكسجين .. كان هناك تعاون لإفساد بعضنا البعض! إلى أن اقتربت مني ودفعت السيجارة في فمي وهي تغمز لي بطرف عينيها، سحبت نفس صعد إلى مخي فقالت لي: لا تخرجه الآن دعه قليلًا، ثم أطلقت الدخان بعد وقت لأشعر بدوران خفيف وانتعاش لذيذ فاصطحبتني معها وأنا أمضي خلفها كطفل يتبع أمه .. فوجدت نفسي في شارع جانبي حيث الهدوء يسود المكان والظلمة تكتسحه والأشجار تتمايل تحت ضوء القمر فتبدو كمظلات عملاقة، وبعض الأوراق تتساقط علينا مغسولة بالندى الذي جعل الجو ضبابي إلى حد ما؛ ثم مالت نحوي وطبعت قبلة رقيقة استطعمت في شفتيها النبيذ، فأقبلت عليها والتهمت شفتيها بعنف حتى بدأت تصرخ، ثم دفعتني برفق وأبعدت خصلات شعرها عن عينيها وقالت لي:

ـ تعالى لنذهب إلى البيت.

ـ هيا بنا؛ هكذا قلت بسرعة.

كان البيت لا يبعد كثيرًا عن الجنينة. فيلا صغيرة وبها حديقة أمامية، دخلنا ثم اصطحبتني إلى غرفتها وعلى الفور بدأت تقبلني وأنا أبادلها القبلات الساخنة، وقضينا وقت طويل في القبلات إلى أن شعرت بيدها تمتد نحو قضيبي .. فامتدت يدي نحو.....لأشعر بشيء آخر وهو قضيب، لكن من أين جاء هذا القضيب؟ هل هذا تأثير البانجو؟ هكذا ظننت، وامتدت يدي مرة أخرى وكان القضيب قد انتصب فسحبت يدي مغلوبًا بصدمة عنيفة وكانت هي مستمرة في هيجاني .. حتى عزمت على نزع ملابسها بالكامل للتأكد..وكانت «مِكس» تقلصت عضلات وجهها فور مشاهدة الصدمة على وجهي وقالت لي: إنني أنثى بما فيه الكفاية.

قلت لها دعيني أذهب.

ـ لماذا؟

ـ آسف أنا مش شاذ.

ـ أوه..ثم صرخت في وجهي وهي تشتمني وتلعنني؛ ثم طردتني من بيتها..والحقيقة أنني شعرت باشمئزاز نحوها.

بعد سنوات طويلة ذهبت إلى هذه الحديقة عن طريق الصدفة، فاستوقفني مشهد عجيب ومفزع، لقد أصبحت الحديقه أشبه بخرابة

وقد دهستها السيارات والأقدام، ووصل بشهرة الحديقة أن جاءها الشباب من كل حدبٍ وصوب، واللافت للنظر الكلاب التي كانت تملأ الحديقة فكل واحد اصطحب معه كلب وأخذ يقبله ويحتضنه وكأنه ابنه. وهذه طريقة قديمة لاصطياد الفتيات البلوند.

****

۲. روز

لا يستطيع شاب مصري أن يتزوج من مصرية سبق لها أن أقامت علاقة غير شرعية مع شخص، كانت يومًا ما تحبه وتتمنى الزواج منه، هنا يرفض الزواج منها دون مناقشة، ربما يتهم من عرض عليه ذلك بأنه أهانه في كرامته، هذه هي طبيعتنا نؤمن بها ونحافظ عليها ولا نحاول أن نناقشها لأن مناقشتها ستفتح أبواب الجحيم. وسألت بفضول:

ـ هذا بالنسبة للمصريات؛ وربما يكون منطقي، أما بالنسبة للفتيات البلوند «وأعني بذلك أوروبا وأمريكا وكل ما هو غير عربي»؟ كانت الإجابة نظرة طويلة في اللاشيء، ثم تقلص لعضلات الوجه، ثم عقد الذراعين فوق الصدر وتظل النظرة الشاردة سابحة في سماء اللاشيء، وسرعان ما يقول لك بشيء من الثقة وبعد كل ذلك:

ـ ماذا تعني بالتحديد؟

ـ وحينها استدعيت البرود والتلامة وقلت بعنف:

ـ هل تستطيع أن تسألها عمن أفقدها عذريتها؟

تبدأ موجة من اللون الأحمر تسيطر على بعض ملامح الوجه ثم يمتص شفتيه ويقول:

ـ هذا سؤال ربما يكون سبب في الانفصال أو الشجار لكنه باختصار سؤال لا تريد أن تسمعه فتاة بلوند ارتبطت بواحد غير الذي أفقدها عذريتها.

من النادر أن تقابل رجل يقول ذلك بصراحة، لكن هناك من كان يقول أشياء عجيبة، لكنها في منتهى الصراحة أيضًا مثلًا من قال:

ـ لقد أقبلت على هذه الزيجة من أجل الجنسية.

ـ لقد أقبلت على هذه الزيجة من أجل الخلاص من الفقر.

ـ إطلاقًا لن يطرأ هذا السؤال في مخيلتي، لقد تزوجت منها دون المساس بحياتها السابقة...

ـ إقبالي على الزواج من فتاة بلوند، هو تفهمي بأنني سأتزوج من فتاة ذات عقلية متحضرة في كل شيء حتى الجنس أمارس معها الجنس بتلذذ، دون أن تطفئ المصباح أو تندس تحت الغطاء مثلما حدث من

قبل..حقًّا كانت حياة معقده، اتهمت وقتها بالشذوذ..

كل هذه ردود كانت وما زالت ترددها الأفواه.

وفي يوم من الأيام ذهبت إلى رجل فاضل كان يؤدي صلاة العصر، وكنت أنتظره في الخارج ولما خرج أقبلت عليه بابتسامة عريضة حيَّاني بمثلها ثم قلت له:حضرتك الحاج «سعيد»؟

قال لي: نعم أنا، أي خدمة؟

ـ الحقيقه أنا مش عارف أبدأ منين، بس أنا شايف إنك رجل فاضل؛ تهلل وجهه بابتسامة عريضة وقال لي بنبرة حكيمة:

ـ خير يا بني؟

ـ حضرتك عارف إنك ديوس..هكذا نفدت الجملة ثقيلة ومؤلمة وغير متوقعة.

ـ إنت بتقول إيه يا جدع إنت؟ قالها وقد ارتبك وبدا هزيل.

ـ بقول إنك ديوس، وطبعًا عارف يعني إيه ديوس، يعني اللي ما بيغيرش على أهل بيته؛ شوف بنتك واللي بتعمله وبتلبسه، وبعدين بحلق فيّ وزعق.

أصاب الرجل دهشة، ولم يستطع الكلام، وكنتُ أعرف أنني

أخطات عندما تهجمت عليه بهذه العبارة التي أرهقت شيخوخته، وعلمتُ فيما بعد بأن الرجل متزوج من امرأة بلوند، وهنا التمست له العذر، دائمًا لكل شيء ثمن حتى الكرامة..فإذا أردت أن تعيش في بلدك بكرامة، فعليك من الزواج من بلوند وأن تسعى للحصول على الجنسية التي تستطيع أن تبطل بها هذا القانون السخيف الذي يتنحى عند مواجهة البلوند ككلب هزيل يخشى وحش شرس، معذرةً أيها الرجل الذي تهجمت عليه بوحشية، فما أنا إلا مثلك ولكن ما زلتُ في بداية الطريق، والثمن هو الصمت تحت بند الحريات فما له أن يتحدث لفتاته وهو قد آمن بالحرية التي تحصن بها من بطش ببلده، وربما تكون زوجته في الأصل عاهرة..وهذا هو ثمن الحرية، إنني جرحت الرجل، وأهنته ولم يكن مقصدي بدافع عقائدي، ولكن بدافع غيرة، فأنا لم أستطع الحصول على الفتاة فسعيت للوقيعة بينها وبين أبيها المسكين، ولكن عندما سألت نفسي، كانت الإجابة بالنسبه لي شيء آخر. أولًا كنت أتمنى أن ألتقي بفتاة بلوند عذراء، وإن لم يحدث هذا، فلا مانع غير عذراء. إقبالي الحقيقي نحو البلوند كان مغزاه إنني منبهر بهذا العالم، وأتمنى أن أكون فردًا منه، أتلقى تعاليمهم وأحيا حياتهم وأتذكر أن الله خلقني من فصيلة البشر، كل ذلك كان في مخيلتي وكنت كل يوم عندما أقرأ شيء أو أسمع شيء عن هذا

العالم، هؤلاء الذين صنعوا لأنفسهم حياة آدمية كريمة جعلت منهم عالم متكامل، فالديمقراطية تطبق عليهم فقط، والحياة الكريمة لهم فقط..إن بلادنا عُرضة للاحتلال، إن العالم الثالث هو عالم أشبه بقطع غيار للعالم الأول، دول حقيرة لا تعرف معنى الديمقراطية دول مليئة بالقمامة، دول تنتهك حرمة الإنسان، أتذكر عندما قرأت بحث عن العامل المصري ونظيره البلوند..كان البحث يقول أن العامل المصري متسامح في حقوقه المادية والمعنوية، ولكن من وجهة نظري أن هذا ليس تسامح وإنما عبودية، وذل، وقهر، فهو يعرف أن حقوقه منهوبة وأنه إذا تجرأ وطالب بها سيكون مصيره الشارع، ويتسول هو وأبناءه، إن مصلحة الفرد في مصر تغلبُ على المصلحة العامة، يقول البحث عندما يموت أو يصيب عامل مصري في محل عمله فإن الأمر يمر مرور الكرام يستأنفون عملهم وكأن شيئًا لم يكن، أما العامل البلوند فإذا حدث ذلك يتوقف العمل على الفور ويتم التحقيق الدقيق في هذا الحادث حتى إذا كلف المنشأة هذا التوقف ملايين الدولارات.. وأشياء كثيرة تجعلك ساخط على كونك عربي أو بالأحرى مصري.

****

أعشق فصل الشتاء ومشاهدة الأمطار وهي تنهمر بغزارة فتغسل الأشجار وتبتل من أثرها الطرقات فيبدو المشهد نظيف، لكن سرعان ما تُخلف ورائها أطنان من الطين، وهذا هو الفرق بيننا وبينهم ، ولكن رغم ذلك فالمنظر جميل يجعلني أشعر بأنني في بلد أوروبي ولو لبضع دقائق فقط..تملأ نهاره وليله الأمطار والعواصف، حينها كنت أجلس في مقهى «صن رايز» حيث أتناول القهوة، وأشاهد الأمطار من وراء الزجاج الضبابي والناس يهرعون ويختبئون منها تحت المظلات.. فجأة دخلت المقهى تلك الفتاة البلوند ترتدي معطف تبدو فيه نحيلة وفوق رأسها بُرنيطة، كانت تبدو إنجليزية، ولكن لم تكن كذلك وكانت كندية عرفت ذلك من عامل الكافيه حيث كان صديقي.. سألته وهو يضع أمامي القهوة قلت له:

ـ البنت دي إنجليزية؟

ـ التف نحوها وقال لي:

ـ هي من كندا؛ أومأت برأسي وأنا أرشف من القهوة، وكأنني لا أبالي، كان وجهها مثير للغاية؛ عينان واسعتان عسليتان وأنف صغير وشفتان رقيقتان، انجذبت إليها من أول وهلة وكأنني أعرفها منذ زمن لم أستطع التوقف عن النظر إليها ومراقبتها حتى لاحظت ذلك،

حاولت أن أبعد عيني عنها فلم أستطع، ولما وجدتني متطفل بعيني أكثر من اللازم، اندفعت نحوي قائلة بنبرة حادة:

ـ هل تعرفني؟

لم أشعر حينها إلا بسيل من العرق تصبب من جسدي كله، هل فعلًا بالغت في تسلطي عليها لهذه الدرجة؟ أومأت برأسي معتذرًا، انصرفت على الفور بعد أن بدا الانزعاج عليها، وشعرت بأنها كانت تود أن تدخل معي في محادثة لتوبخني لكن اعتذاري جاء فاصلًا، إنني اعتذرت في بادئ الأمر وهذا ما كانت تنتظره، وفكرت وقلت لنفسي كان من الممكن أن أصرح لها عن إعجابي بها لكنني سرعان ما أقلعت عن هذه الفكرة السيئة، خرجت من المقهى وكانت الساعة تجاوزت الحادية عشر مساءًا، وكنت أتمنى أن تكون الثانية صباحًا لأذهب إلى البيت للمبيت فقط، كانت الحياة في منزل العائلة حياة أقرب إلى الكآبة حيث الشجار لا ينقطع عن البيت حتى الكلمات التي كنت أسمعها كانت تسبب لي مزيدًا من الإحباط، هي هي نفس الكلمات اللعينة؛ اذهب إلى الخليج لتعمل هناك مثل أقاربك، يا الله ما أصعب هذه الكلمات على نفسي، عندما أسمعها أشعر بالذل والقهر، البلاد العربية..كم أكره تلك البلاد، وكنت أرد عليهم صائحًا سائرًا:

ده أنا أروح إسرائيل، لكن مش هروح الخليج انتوا فاهمين..

ـ وهي إسرائيل فيها شغل؟ هكذا السؤال يأتي عفوي.

ـ يا ريت..بس دي فيها حرب.

ـ يعني عايز تروح تموت هناك؟

ـ أيوة، بس أعيش شوية هناك، وبعدين أموت، أحسن ما أموت في الخليج من الغيظ..

ـ كسلان وبتبرر كسلك بكلام فارغ.

وكنت أعلم أن الخليج أمواله كثيرة، وأن فرصة العمل هناك بالنسبة لي متوفرة حيث أقاربي هناك، ولكن لا يستطيع أن يعيش في الخليج واحد مثلي يبحث عن الحرية والكرامة..الخليج يحتاج لإنسان لديه قدرة على تحمل الإهانة، يستطيع أن يتغاضى عن أن شي يجرح كرامته، كم أكره هؤلاء الذين يسبحون في النفط، الذين لم يخدموا شعوبهم، ولم يعلموا شعوبهم وينتشلوهم من البدائية التي ما زالوا يقبعون فيها، لا يعلمون أن العلم هو القوة الوحيدة في العالم، ما زالوا يمارسون أشكال العبودية ويتعاملون على أنهم أنقى شعوب الأرض، إنني لا أستطيع أن أتحمل شخص يتحكم في مصيري سحقًا للأموال

وللبشرية جمعاء. وسرعان ما تنتهي هذه المناقشات التي داومت على سماعها ثم يذهب كل أفراد الأسرة للنوم، ولا يعي أحد مشاكل الآخر وأذهب لأستريح من عناء العمل..

الليل..السكون..صوت الضفادع..السماء المظلمة..السحب الداكنة التي تمتلئ بقهر النهار وكأنها تحمل ما آل إليه الناس من قهر وظلم، إنها سماء فوق أرض ليست عادلة، ولكن يظل النوم بعيدًا كل البعد، لا يداعب عيناي إلا عند بزوغ الفجر عندما أسمع الأذان وبعده بقليل أسمع صياح الديكة، أحاول جاهدًا النهوض للصلاة، لكنني أشعر بثقل غريب في جسدي، وكأن هناك مخدر يسري بين ضلوعي، وشيئًا يخاطبني ما الفائدة الذي ستعود عليك إذا قمت للصلاة..هل ستلاقي النجاة؟ هل أبواب السماء ستُفتح لواحد مثلك كل حياته قائمة على الخطايا؟ فأقول لنفسي إن الدنيا هي حياتي، أما الآخرة فلا أعرف عنها شيء، كيف أتحدث إلى الله، وهل سيسمح لي، وهل أستطيع الكذب عليه كما كذبت على الناس؟ إنه هو الوحيد الذي يعرف ما يدور في نفسي، هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذي ولكنني فاسد، نعم فاسد، التدين شيء صعب جدًّا لا يطيقه سوى الأقوياء وأنا ضعيف جدًا، أنا أعرف حقيقة نفسي وهذا ما يجعلني أكثر هروبًا من الواقع، ولا أفيق من هذه الإسطوانة إلا عندما أشاهد بصيص من

النور بدأ يملأ السماء، لألتف في الغطاء وأخلد في نوم عميق.

في تلك الأيام كنت تركت العمل في مقهى "تي بوت" لأسباب كثيرة؛ منها أنني أكره الاستغلال..لماذا أعمل إثنى عشر ساعة بمبلغ غير آدمي، ربما هذا المبلغ يغطي نفقات كلب بلدي عندما تذهب لتشتري له بقايا الدواجن، وكل ذلك من أجل البطالة سحقًا للبطالة، وتساءلت ذات مرة "كيف في أوروبا معدل ساعات العمل هناك ست أو ثمان ساعات ودول غنية وقوية، ونحن نعمل ليل نهار ودول فقيرة وضعيفة؛ ووجدت أن السبب في ذلك هو غياب العدالة. نحن دوله ليست عادلة، أما هم دول عادلة، ولذلك وجبت لهم القوة والتقدم" كم من المرات التي كنتُ أشاهد فيها صاحب المقهى ذلك الرجل الضخم ذو الكرش الكبير الذي كان يعاملنا باستعلاء، كم مرة وأنا أوشك على ضربه في كرشه، ولكن سرعان ما أعود لنفسي وأقول إنه يفعل ما يفعله الكثير، يستغل البطالة ليسحق أي عامل أو موظف، النهاية..أترك العمل ليأتي من بعدي طابورًا من خريجي الجامعات والمعاهد ليختار منهم ما يشاء، وأسوأ شيء ممكن يحدث لك حين تترك العمل ثم تعود مرة أخرى، يا له من شعور قاس، ونظرة تجعلك تكاد أن تتبول على نفسك، وجملة تجعل العالم كله ضدك وهي "دي فرصتك الأخيرة أنا مش فتحها تكية يا حبيبى" ومرة سمعت من

صاحب عمل كلمة لا أعرف كيف قالها "بخمس جنيهات فوق راتبه ييجي تاني زى الكلب..هي البلد دي فيها شغل غير عندي أنا" هكذا قال وهكذا البطالة صورت له إن الرزق أنزله الله عليه هو فقط ليوزعه كيف يشاء، إنني أترك العمل؛ لكي لا أُصيب بإحباط يقضي عليّ في لحظة فأموت مثل الكلاب فيأخذوني إلى المشرحة، وهناك يفتشون في جسدي، ويسرقون أعضائي ويبيعونها وهناك قاعدة أساسية عند أصحاب الأعمال لم أستطع أن أتبعها وهي "إذا أردت أن تحظى بمكانة عندهم، كن كذابًا، كن منافقًا، كن فتانًا، ستجد نفسك لك مكانة كبيرة في العمل"، شاهدت كثيرًا المرأة التي كانت تأتي من مكتب العمل، تنظر إلينا في بلادة وتأخذ الأسماء وترحل، ثم يذهب إليها صاحب العمل ويلقي في درجها الورقات السحرية وينتهي الأمر، "قانون العمل" يا له من مسمى يثير شهيتي للضحك، قانون العمل هذا القانون وسائر القوانين لا تجوز في بلد مثل مصر..كنت أتمنى أن تكون مصر دولة رأسمالية وأن الحكومة تُزيل العقبات أمام رجال الأعمال وتدعمهم، ولكن رأس المال بدون قانون عمل يحفظ حق العامل وكرامته ستتحول إلى دولة يحكمها بضعة عائلات وباقي أفراد الشعب هم عبيد ليس إلا، كل ذلك هراء، وبعد أسبوعين من ترك العمل هاجمني الملل بشدة، وكنت أقضي وقت طويل في البيت مما

يجعلني أسمع قدر كاف من الكلمات القاسية، إن الحديث في الحقوق والواجبات يؤخذ على سبيل المجادلة الفارغة، لقد تربى العامل والموظف المصري على الطاعة حتى إذا كان على حساب معيشته وكرامته فليس غريب أن نقابل هذه المعاملة.

****

بدأت أفكر بعيد عن هذه الأفكار المزعجة، والأيام تمر من حولي دون جديد، حيث طرأت عليّ حياة ناعمة أستيقظ في الصباح سمة شيء في صدري يدفعني للضحك واللامبالاة رغم الكلمات التي أتلقاها، ولا شك بأنني لا أعرف سر هذا التغير سوى شعوري بأنني على حق وأنني أمضي إلى مستقبل مشرق! وفي تلك الأيام كنت أقضي اليوم في التسول في الطرقات أبحث عن عمل، أو عن امرأة بلوند أتسكع معها، أو أجلس مع صديق وهكذا حتى قابلت صديق قديم يدعى «سامي» شعرت بأنني في حاجة له رغم إن العلاقة بيننا كانت غير مستقيمة، تصافحنا وتبادلنا الأخبار العادية ثم اصطحبني معه إلى مقهى كبير في عمارة ضخمة يسمى مقهى «الدكتور» (ولم أعرف لماذا أطلق هذا الاسم على المقهى)، غير أنني أعشق التجوال مع «سامي»؛ لأنه ذو مظهر أنيق ووجه يُحترم وله معارف جيدة..

بعد أن جلسنا وسط الضجيج الشديد والأصوات المتداخلة والضحك الهيستيري ورائحة الشيشة والسجائر بدأ يتركني كل دقيقة ثم يعود؛ سألته إنت مشغول؟

نظر إليّ وقال: لا..ثم استطرد قائلًا:

ـ لسة بتجري وبتحلم بالبلوند يا «عماد»؟

شعرت حينها بإحساس غريب، إحساس الغربة عن موطن ما، أو عن شخص تختبئ داخله من الخوف، البلوند - إنني منذ توقفي عن العمل، لم أشاهد فتاة بلوند..

قلت له: تقصد ما زلت أحلم بحياة البلوند..

ـ يا سيدي المعنى واحد.

وقبل أن أستأنف حديثي معه رأيت تلك الفتاة الكندية التي شاهدتها في مقهى «صن رايز» تدخل المقهى، تركني وذهب إليها تحدث معها قليلًا ثم عاد مبتسمًا تأملت هذا المشهد بذهول ثم بادرته متسائلًا «هل تعرفها؟

قال لي:

ـ «براون» هكذا تحدث بتلقائية.

قلت له التي تحدثت معها «حيث كان معها صديقتان».

قال لي:

ـ أنا تحدثت إلى براون؛ لأن بيني وبينها بعض الأشياء، ولا أعرف سوى صديقة واحدة من هاتين وهي «روز» أما «براون» فهي فتاة ممتازة صاحبة مزاج..تحب تتعرف عليها؟

شرد ذهني في أشياء كثيرة وتملكني الضيق ورغبة في الرحيل، لا أحب أن أتعرف على أي فتاة بلوند عن طريق المصريين، أعلم جيدًا أن هناك أشياء غريبة تحدث، فالمصري لديه قدرة عجيبة على إفساد أي علاقة تنشأ بين مصري و«بلوند» فإنه يسعى لتشويه صورة المصري ليُبرز صورته رغم إنه مصري مثله..ولا أعرف سر هذا الغباء من هؤلاء الذين يظنون الجهل والغباء في البلوند فيعاملوهم على هذا النحو، وهو لا يعلم بأنه بذلك يسيء إلى نفسه، وأذكر موقفًا لصديق لي كنا نعمل سويًا وكان صديقي على علاقه بفتاة أمريكية، فذهب زميل لنا وأفسد هذه العلاقة بعد أن قص عليها قصة زواجه وأنه يقترب منها فقط ليسلبها نقودها، عندما حدث ذلك قال لي صديقي:

ـ شايف الوساخة يا عماد، كل ده مش عشان إنه أمين وخايف عليها ده عشان يكسب ثقتها.

قلت له: دي حالة شاذة ده مش معناه أن المصريين كلهم كدة.

ابتسم بسخرية وقال: إنت يا ابني مش عايش معانا..إنت محسسني إنك غريب عن البلد دي.

كنت أحاول أن أتجاهل أي شيء سلبي بعد أن فشلت في التصدي لتلك الأساليب، وكنت أشعر بالإحباط من تلك المواقف التي تتسم بالخبث والانتهازية..

في تلك الفترة كنت أعمل معه في هذا النادي العملاق، وكان عملي يقتصر على تنظيف عربات الجولف وكنت المسئول عن المخزن وعن تسليم مستلزمات اللعب للجيست، وجاء إليّ ذات يوم رجل كوري وامرأته وطلب مني أن أسلم الترولي الخاص به لصديق له، وذهب صديقه بالترولي ولم يأتي به، وفي اليوم التالي جاءني الكوري ومعه امرأته وقال لي أعطني الترولي.

قلت له: آسف لقد ذهب صديقك بالترولي الخاص بك ولم يأتي به

قال لي بنرفزة: كيف يحدث ذلك؟ أنا في حاجة لترولي.

ـ هذه ليست مشكلتي، أنت الذي سلمت الترولي لصديقك.

ـ اعطني ترولي من عندك من سكات.

ـ هذه أمانة..لا أستطيع.

ـ أمانة..مصري يتحدث عن الأمانة.. هه، هكذا قال بسخرية.

وراحت زوجته تتحدث الكوري وكان صوتها مستفز..وكان للكورين مراحل في النرفزة فحين يصل إلى آخره تجده ينتفض وقد تحجرت عضلات وجهه ثم يبدأ معركته معك بضراوة، وعندما أطلق هذه العلامات أدركت أنني في مواجهة مشكلة عنيفة، حيث انقض عليّ ومسكني من عنقي وهو يقول: تعالى معي إلى مديرك، نزعت يده من عنقي ودفعته بكل ما لدي من قوة ليرتطم بظهره في الدواليب، ثم تسمر مكانه وقد ملأ وجهه الذهول، وصاحت زوجته: أنت مصري، أنت مصري..

ـ نعم مصري..والتقطت زجاجة مياه فارغة ودفعتها في رأسها.. وما كان منهم إلا أن ذهبوا، وجاءوا بالمديرالذي شاهدني وأنا أقوم بتنظيف العربات وبترتيب الأشياء قال لي: «عماد» ماذا حدث؟

أومأت برأسي وأنا أقول لا شيء، ثم انطلق الكوري يقص ما حدث. فقاطعته وأنا أقول لمديري الإنجليزي: هذا وقت عمل وأنا لدي بعض الأعمال وأريد إنجازها فإذا كانت هناك مشكلة فدعها إلى حيث الانتهاء من عملي..نظر إليّ مديري بإعجاب وقال لي: حسنًا.

واستطعت أن أقنع مديري بموقفي الإيجابي، لكن الشيء الذي استفزني حقًا ما قالته المرأة الكورية. أنت مصري. أنت مصري، من أعطاها هذه الصورة عن المصريين؟ بالطبع المصريين أنفسهم..

****

وبعد ثلاثة أيام من تلك المقابلة، اتصلت به أريد لقاءه، وتقابلنا في مقهى "الدكتور" حيث كان المقهى هذه المرة يضج بالبلوند فقط، كانت الضوضاء تملأ المكان وكان يصعب عليّ وعليه أن نتحدث فخرجنا واستقرينا أمام المقهى. حيث استغرق لقاءنا بضع دقائق قلت له أنني في حاجة ماسة للعمل.

قال لي: عماد الشغل موجود، ولكن أنت جد؟

ـ طبعًا.

كنت أعرف أنه يتاجر في المخدرات، ويبيعها للبلوند فقط، وكان بالفعل في حاجة لمعاون حيث أملى عليّ سريعًا كيف يتعامل، كانت لديه ثقة شديدة بي، وأيضًا كان واثقًا من نفسه..بالإضافة إلى ذلك إتقاني للغة الإنجليزية.

****

أول شيء حملته كانت باكيت بانجو مطحون في ورقة سلوفان

خبأتها في ملابسي الداخلية، وذهبت بها، كان مظهري ليس مشكوك فيه أرتدي ملابس غالية وصففت شعري بعناية، ولكن لا شك أنني كنت قلق بشدة، لم أفعل ذلك من قبل ودائمًا ما أتجنب تلك الأشياء، لكني فعلتها بقصد التقرب من تلك الكندية، وليس الإبحار في هذا العالم، كان الطريق ممتلئ برجال الشرطة، وكنت أشعر بأنهم يرمقوني وربما كنت أظن ذلك، ولما اقتربت من العنوان وجدت سيارة شرطة تقطع الطريق وتقوم بعملية فلترة لكل المارة المشكوك فيهم، وجدت نفسي أنحدر إلى كشك سجائر أبتاع منه بعض المقرمشات، وبدأت أتجه نحوهم، ثم بسذاجة مصطنعة وقفت بجوارهم وبدأت أنظر لِمَا يفعلونه مع الناس من تفتيش دقيق ثم بدأت ألتهم المقرمشات في بلادة..وكأنني طفل يستمتع بقطعة شوكولاتة في يده، حتى اخترقتهم وأنا أمشي ببطء، نظر إليّ الضابط نظرة عابرة وعاد إلى ما يفعله ومريت بسلام، لم أكن في حياتي إنسانًا لئيمًا ولكن التعامل مع الشرطة يستدعي أكثر من ذلك؛ لأنهم في الواقع أغبياء، كانت العمارة شاهقة تحدها الجنائن والنخيل، على مدخل العمارة رجل أمن ببدلة أنيقة استقبلني بابتسامة، قلت له إنني صاعد إلى "براون" كنت أتمنى أن أجد تلك الكندية، لقد فعلت ذلك من أجلها، فسح لي الطريق وتركني أصعد، ولما دخلت المصعد أخرجت الورقة من ملابسي

الداخلية ووضعتها في جيب البنطلون.

فتحت الباب «براون» ابتسمت لي ببراءة وظلت متطلعة إلى يدي ثم أخرجت الباكيت من جيبي وقذفت بها في يدها حيث التقطتها بسرعة. ثم مررتها على أنفها. ثم قالت بسعادة «جود» بينما أنا كنت أتابع الصالة وأحاول كشف المزيد منها ربما أجد «روز» ثم فعلت شيء أسعدني جدًا، حيث دعتني للدخول. وهذا ما كنت أتمناه ولما دخلت قادتني إلى صالة كبيرة خالية تمامًا إلا من منضدة ومقعدين وأريكة وباقي الغرف مغلقة، كانت المنضدة تعلوها أشياء كثيرة، علب سجائر، وزجاجات من النبيذ، وأواني صغيرة مطحون داخلها برشام وورق بفرة، كان معها صديقين من كندا يذهبان بكثرة إلى الحمام، قالت لي: هذا من أثر البرشام أنا لا أحب تناوله يجعلني أتقيأ، ولما جلسا إلينا بدأت تُعرفني عليهما كانا فتايين جميلين ينعمان بقدر كبير من الوسامة، شرعوا بعد ذلك في لف سجائر البانجو بمهارة شديدة، لم تكن بينهم «روز» ولم أحاول السؤال عنها استكفيت بمراقبة «براون» كانت عيناي مصوبة عليها وتساءلت: كيف هذا الجمال وهذه الأنوثة تتعاطى طعام البهائم؟ كانت أصابع قدميها بها خواتم وكانت نظيفة لدرجة تجعلك لا تكف عن النظر إليهم، أخرجت لسانها لتلحم البفرة فلمحت جسم صلب يتدلى منه، ثم بدأت رائحة البانجو تملأ المكان، واحترقت أول

سيجارة ثم الثانية والثالثة، ثم شهقت مرة واحدة فبعثت الخوف بداخلي، وألقت برأسها على حافة الكنبة بدت عيناها حمراء لدرجة تثير الرعب، وبدأت تتنفس بصعوبة فتملكني الخوف فوجدتهم الثلاثه أصبحوا صورة واحدة، فكرت سريعًا في الذهاب وعند قيامي بذلك شعرت بعدم اتزان من شدة ما استنشقت من دخان البانجو، لكني تحملت وبدأت أركز جيدًا، وخرجت من الشقة وأغلقت الباب خلفي بهدوء خوفًا من أن يشعروا بي، وقررت النزول عبر السلالم ثم إلى الشارع، وبذلت جهدًا كبيرًا؛ لكي أتفادى رجل الأمن، ولما استقريت في الشارع شعرت بالأمان. لفحني نسيم الليل البارد فانتابني شعور لذيذ ربما لأنني تمكنت من الهرب أو من تأثير البانجو الذي استنشقته، دخلت حديقة عامة وقمت بسكب الماء فوق رأسي ثم طرحت جسدي فوق النجيلة الكثيفة وذهبت أنظر إلى السماء، كان لونها زاهي في تلك الليلة المعتمة بالنسبة لي، وكانت النجوم تلمع كنت أراها وكأنها قريبة مني، وتفكرت في أمر تلك الفتاة، وكنتُ أخشى أن يموتوا، لكنني كنت مطمئن بعض الشيء فليس عليّ أدنى مسؤلية ولم يعرفني أحد، بالضبط هي جلسة مخدرات أنهت حياة ثلاثة بلوند، ومن أين ابتاعوا المخدرات؟ لا أعتقد أن الشرطة ستغلب، الشيء الوحيد الذء أحزنني هو الفتاة، ولكنها أيضًا قضية خاسرة.

في تلك الليلة لم أستطع النوم رغم أنني كنت مجهد، ولكن كنت أفكر في الخلاص من تلك الحياة البائسة إنني ألهث وراء البلوند دون فائدة، ظلت الليلة طويلة كالعادة وكنت أدخن بشراهة، وتناولت عدة زجاجات بيرة، خرجت بعد منتصف الليل بساعتين لأبحث عن امرأة مومس أقضي معها وقت، وكنت متفنن في ذلك أعرف أوكارهن والشوارع التي يتسكعن فيها «في الحقيقة هذه أشياء لم أتباهى بها ولكنها للأسف كانت هي الحقيقة»، كانت الشوارع خالية والجو شديد البرودة، وكان هناك شارع تتسكع فيه النساء العاهرات وجدت واحدة منهن تنزل من سيارة كانت طويلة ولها وجه مثير، ذهبت ناحيتها وتحدثت:

ـ تعالي عايزك.

نظرت إليّ قليلًا ثم قالت لي بصوت محشرج: نتفق الأول.

ـ مش هنختلف. كنت أريد أن أفرغ الشحنة التي كنت أدخرها لـ «روز» اصطحبتها إلى البيت وصعدت بها إلى السطح كانت هناك غرفة بها سرير ومقعدين أضأت المصباح فشاهدت الفتاة فوجدتها سيئة للغاية كانت ملامحها كئيبة ورائحتها كريهة شرعت في خلع ملابسها المتسخة، فلمحت أظافر أقدامها طويلة ومحشوة بالطين،

والشقوق تملأ باطن قدميها، قميص نوم قذر يشبه الجلباب، شعر كله تراب وقشرة وربما قمل، جلستُ على المقعد وأشعلت سيجارة، وكنت قد عزمت على أن لا أضاجعها.

قالت لي: مش ياللا.

قلت لها: اسمك إيه؟

قالت لي: هو احنا لسة هنتعرف..يالا يا سيدي خلينا نخلص وعلى العموم اسمى "سميرة".

ـ سميرة إنتِ بتشتغلي الشغلانة دي لمزاجك ولا علشان الفلوس.

ـ وتفرق إيه معاك؟

ـ كتير، أولها المتعة.

ـ هو إنت جربت معايا الأول.

ـ معلش متأخذنيش..أنا مش حيوان عشان ألمسك وأنتِ بالمنظر ده.

ـ منظر إيه؟!

ـ إنتِ مش حاسة بنفسك ولا إيه؟

ـ تقصد إيه؟

ـ بصي..من شغلانتك دي ممكن تبقي برنسيسة. وممكن تفضلي زي ما انتي في النازل.

سيطر عليها الذهول، وظلت تمحلق فيّ وظنت أنني قواد. ثم رفعت حاجبها وقالت: طبعًا برنسيسة.

ـ يبقى تهتمي بنفسك شوية. من ملابس ومكياج ونظافة وخلافه. وتبدئي تسهري في أماكن راقية ومن هناك هتجيبي زبون سقع يدفع اللي تقولي عليه. لأنك هتكوني مستوى..كانت تود أن تستفسر مني عن سبب تلك النصيحة، لكنني أنهيت اللقاء لأن رائحتها كانت كريهة، كانت فقيرة مثلي وفي حاجة إلى من يوجهها إلى هذا الطريق..حقيرة لا تملك من أمرها شيء تبيع نفسها من أجل الحياة، واحدة مثلها، جاهلة، فقيرة لو توظفت، هل تستطيع العيش بمرتب غير آدمي؟ وهذا ما دفعها لهذا الطريق، حتى العاهرات منهن مستويات تناسب كل الطبقات، طلبت مني نقود رغم أنني لم ألمسها. لكنني لم أعطها، يكفي النصيحة التي نصحتها بها، بدأ النعاس يهاجمني كالعادة عند بزوغ الفجر وذهبت في نوم عميق حتى المساء وعزمت على الذهاب إلى مقهى «الدكتور» حيث مقابلة «سامي» ولما ذهبت وجدته جالس

يحتسي الشاي ويدخن، وكانت ملامحه توحي بالاطمئنان وأنا أيضًا كنت واثق من نفسي. ألقيت عليه التحية وجلست جواره تطلع إليّ بنظرة ضاحكة ثم قال: ها إيه الأخبار؟

قصيت عليه ما حدث، ثم بعدها انفجر بالضحك لدرجة جذبت الأنظار إلينا ثم قال لي: أنهم بعد ذلك نزلوا إلى الجراج ومارسوا الجنس لبضع ساعات «الصنف جامد طلب معاهم كدة».

استمر في ضحكه وأنا استكفيت بالصمت ..

فقلت له غاضبًا: دي أول وآخر مرة.

ـ اعقل يا عماد.

ـ مش هقدر أساعدك يمكن المرة الجاية أجيبلك مصيبة.

ـ إنت حر..أنا بس حبيت أساعدك، هكذا قال وهو يعتدل فوق مقعده.

جلست وبدا على وجهي الضيق وتحدثت بنبرة توحي بالانكسار قائلًا:

ـ علاقتك بموظفي النادي الأمريكي كويسة، أنا عايز أشتغل هناك.

ـ الأفارقة مسيطرين على النادي يا عماد..بس هحاول.

وفي اليوم التالي جاء وجلس جواري ولم يبد أي اهتمام.وعاودت سؤاله مرة أخرى، نظر إليّ وقال بسخرية:

ـ في وظيفة..عامل نظافة في النادي الأمريكي.

كانت أسعد لحظات حياتي حين بشرني بذلك وكدتُ أن أقفز من مقعدي مهللًا، ثم قال لي:

ـ الشغل كاجوال، يعني مبدئيًا بدون عقد.

لم يعنيني ذلك قدر ما كان يعنيني أنني سأعمل في النادي الأمريكي، وهناك مؤكد ستكون الفرصة سانحة، عملتُ في النادي الأمريكي، وهذه نقطة تحول في حياتي مهمة جدًا تعلمت من هذه التجربة أشياء كثيرة. ولم أبالغ إذا قلت أنني من خلال تلك التجربة عرفت مَن يحكم العالم. كان لهذا النادي مدير أمريكي يدعى مستر «بل كي» طويل وضخم له بشرة حمراء ولحية كثيفة على غرار العصر الفيكتوري، وكان قليل الحديث لا يمزح مع أحد ولا تراه مبتسمًا أبدًا، كان النادي ضخم يقع على عدة أفدنة به ملعب «باسكت بول»، وملعب «تنس»..وحمام سباحة وبناية كبيرة تضم مطعم، وبار، وصالة بلياردو، غير حديقة متسعة بها «أشجار الكافور العملاقة»

بجانب قطعة أرض كبيرة مخصصة للبيسبول، لكنني لم أشاهد أحد يلعب فيها، وعلمتُ بعد ذلك أنها نقطة تمركز للأمريكان حين يحدث عمل إرهابي، أو مغادرة جماعية يتجمعوا فيها، كان عملي في النظافة يبدأ بارتداء اليونيفورم والإتمام على عدتي، وأبدأ حين يفرغ النادي من رواده، ننظف الحمامات والبار والحديقة ولا مسموح لنا بالظهور إلا بعد أن يفرغ من رواده، كل ذلك جعلني أشعر بالكآبة وكنت على وشك ترك ذلك العمل، كان معي فتى أفريقي يدعى «صموئيل» شاهدني مرة وأنا أقذف الماسحة في الحائط قال لي: عماد، لا تكن يائسًا سيأتي يوم ونعمل هناك في البار ونأخذ بقشيشًا كبيرًا، كنت أنظر في وجهه أجده ممتلئ بالنور والرضا يعمل في ثبات ويبتسم، دائمًا كنت أحسده على هذه الثقة التي يتعامل بها ..

****

وفي ذات يوم جاء لي مديري وهو شاب إنجليزي يدعى «جيف» وكان قليل الكلام معي ودائمًا ينظر إليّ ويقول «عماد» أنت تملك جسد رشيق يا ليتك تهتم «ثم يطلق ضحكة سخيفة» قال لي بنبرة جادة: لديك فرصة أخيرة للعمل هنا. أنت متكاسل ولا تهتم بعملك، في الحقيقة لم أرد عليه وخيم عليّ الضيق، كانت الأيام بطيئة يملأها

السكون والغربة أجل الغربة عن الحلم والحياة تمنيت أن أعمل في هذا النادي لغرض ما، ولكن لا شي يأتي بسهولة، لا أرى الأصدقاء ربما مللتهم يتكلمون عن الماضي أكثر من الحاضر ويسخرون مني، هم أيضًا مقتولين، وفي ذات يوم كنت أتسول في الحديقة وقد تطرفت إلى أطرافها وهناك أشعلت سيجارة وهذا ممنوع جدًا وإذا شاهدني أحد وأبلغ المدير من الممكن أن يسفر ذلك عن رفدي على الفور. وبالفعل شاهدني «جيف» ومن حُسن الحظ أنني رأيته وانطلق سريعًا يبلغ المدير العام بل فعل أكثر من ذلك وهو أن جاء به..ارتبكت وأطفأت السيجارة ووضعتها في جيبي، وبحثت عن شيء أفعله فوجدت كيس بلاستك عالق بأفرع الشجر جئتُ به وبدأت أجمع بداخله أوراق الشجر المتناثرة على الأرض. قال لي م/ «بل كي»: عماد.. ماذا تفعل هنا؟

قلت له: وجدت نفسي لا أفعل شيء فاتجهت لتنظيف أطراف الحديقة بعد أن وجدتها مهملة. نظر إليّ «جيف» وقد اتسعت عينه بدهشة، ثم استأنف م/ «بل كي»:

ـ فكرة رائعة ولنفعل كلنا مثلك. وبالفعل الكل ارتدى ملابس عمال النظافة وبدأوا ينظفون الحديقة وكان «جيف» ساخط عليّ، قال

لي وهو ينظف: ألم تكن تدخن؟

قلت له: أنت شاهدتني؟

قال: نعم.

قلت له: إنني كنت أقوم بالنظافة.

قال لي: أنت لست سهلًا.

قلتُ له: أنا أبويا يهودي..وكانت كلمة دارجة نقولها عند هذه المواقف التي تتسم بالخبث، لكن الأمور تغيرت بعد ذلك وبدأت أشعر بأشياء كثيرة كنت أفتقدها في هذا النادي مثل الحرص على راحتي في العمل، هل شيئًا ما يضايقني، بعض الاهتمام بدأت تظهر الحوافز التي تتدفقت عليّ، إلى أن جاء شهر «رمضان» وكنت من عادتي لا أطيق الصيام، وفي أول يوم شاهدني «جيف» وأنا أتناول الغداء مع «صاموئيل» قال لي مندهشًا: «عماد»، أنت مسيحي؟

ـ قلت له: لا.

فاقتنع بأنني يهودي، وفي تلك الأيام بدأت أشياء عجيبة وغريبة تحدث من تصرفات ونظرات، ولا أعرف ماذا حدث حتى جلس معي "صاموئيل" يحدثني قائلًا: عماد، عندي سؤال لك أريدك

تجاوبني عليه بصدق، هل أنت يهودي؟

لم يكن السؤال متوقع لكنني تعاملت معه بسرعة حيث قلت له: ما الدافع لهذا السؤال؟ هز رأسه معترضًا على المجادلة فكرر السؤال مرة أخرى: أنت حقًا يهودي؟

كانت عيناه مفتوحتان عميقتان تنتظر لفظي بالإجابة سريعًا.

ـ قلت له: ما المانع أن أكون يهوديًا، مسيحيًا، أو مسلمًا طالما هناك قيم وأخلاق تحس عليها هذه الأديان..تركني وانصرف عني والمؤكد أنه اقتنع بأنني يهودي، وعاد يصرخ في وجهي قائلًا: النادي كله يتحدث في هذا الشأن والحقيقة لم أهتم "بصاموئيل" تركته غاضبًا يبعث إليّ بعيناه كثيرًا كمن يرجو شيء، وفي الحقيقة أيضًا أسعدني هذا الاهتمام، وأكملت في هذا الغموض لقد تحول النادي كله إلى إشارات ومحادثات تخصني، وكنت أتجاهل الأمور وأبدو على طبيعتي، وفي ذات مساء استدعاني م/ «بل كي» المدير العام وأنبأني عن نقلي إلى العمل في البار، وبالفعل انتقلت وتضاعف راتبي ثلاث مرات غير البقشيش الذي كنت أستحوز عليه وحدي، وكان يكرهني كل الفريق الذي يعمل معي في البار، وكانوا أفارقة، بعد أن اقترحوا عليّ جمع البقشيش من كل العاملين وتقسيمه بيننا بالعدل، قلت لهم أين

العدل في ذلك أعمل في مشقة وأنول جزائي ثم تأخذوا أموالي، هذا مستحيل، ولم يجرؤ أحد أن يحدثني في شيء مرة أخرى ، الشيء الذي كان يستفزني هو مشاهدة الرواد لي، كانوا ينظرون إليّ وكأنهم أمام ساحر سيفجر أمامهم مفاجأة من لعبة يلعبها، وأيضًا كان هناك رواد عجائز نساء ورجال كانوا يأتون إليّ ويمسحون بأيديهم على شعري ويتركون لي نقودًا كثيرة، وجاء "جيف" مديري القديم وجلس على طاولة وطلب كوز بيرة، أحضرته له قال لي: أظنك من البداية ليس سهلًا.

ـ ولماذا تظن..أنا بالفعل ليس سهلًا.

ـ نظر إليّ بغرابة وقال: أنت مغرور وهذه هي نهايتك، أنا أريد الصالح لك، تعاون مع زملائك ولا تكن طماع.

ـ النقود تمثل لي المرأة، فهل تقبل أنت أحد أن يشاركك في امرأتك.

تظاهر بالفهم وهو يشتعل غيظًا ثم أردف قائلًا:

ـ هذا شأنك.

ثم قلت له: سمعت أنك ستسافر أمريكا.

ـ أجل في بداية العام الجديد.

قلت له إن أمريكا بلد كبير أي أحد يتمنى السفر هناك، إنها فكرة رائعة وأنا أتمنى السفر إلى هناك، رفع عينيه ونظر إليّ نظرة طويلة وكأنه وجد الفرصة ليهينني ثم قال منتقدًا: أمثالك ليس لهم مكان في أمريكا.

أدهشني هذا الرد المؤلم، كانت النبرة التي يتحدث بها يملأها الكره والكبرياء.

ثم قلت له ببرود مصتنع: لماذا؟

ـ أولًا انت عربي وهذا يعني في نظر الأمريكيين أنك إرهابي، مهما كان ولاءك لها ستظل تحت الميكروسكوب حتى إذا قلت لهم أنك جاسوس وتعمل لحسابهم، أيضًا لن تنال رضاهم، لأن الشعب هناك يسيطر عليه الإعلام، غير إنه بطبيعته مغلق على نفسه، باختصار أمثالك هناك يُضربون بالأحذية. إن ما قاله "جيف" بتلك النبرة كانت بمثابة حريق اشتعل في صدري، حاولت جاهدًا أتذكر أي شيء للعرب ولكن فشلت أو بالأحرى فإن العرب لم يجعلوا لنا تاريخ حديث نفتخر به، كانت عيناه الزرقاوتان تحدق فيّ وكأنها تلعنني.

قلت له بنفس النبرة التي حدثني بها: إن كل ما ذكرته من الممكن أن يحدث مع أي شخص عربي أو حتى إنجليزي مثلك ولكن من

المستحيل أن يحدث معي أنا.

رفع حاجبيه وهز رأسه متعجبًا، قلت له:

ـ لا تتعجب، أنت تعلم لماذا؟ كانت طريقتي باردة لدرجة استفزته.

ـ عشان أنت يهودي. هكذا قال لي بتوتر ونرفزة.

ابتسمت بسخرية، وقلت له إن أمثالي لو ذهبوا إلى أمريكا سيضعون أقدامهم فوق رأس كل أمريكي مهما كانت قوته وسلطته، أنت تعلم أننا نحن الذين صنعنا أمريكا ومن السهل أن نخسف بها الأرض "قوة ما بعدها قوة استمديتُها من اليهود المتمثلين في دولة إسرائيل" كنت أعلم أن هذه قوة قادرة على حمايتي من أي شخص وأي دولة، كنت فخور بهزيمته وتنكيس رأسه أمامي..حينها كانت تغمرني السعادة.. إحساس صعب أن يُوصف لأنني لم أشعر به من قبل في ظل الجنسية المصرية ..، هكذا تحدثت بثقة كما لو أنني يهودي حقًا..ثم سرعان ما تركني دون أن ينظر في وجهي..الغريب أن الظروف كانت تساعدني جدًا وكنت أتعجب من هذا السيناريو الذي أتحرك داخله بسلاسة عجيبة، كان من الممكن أن تصادفني مطبات كثيرة لكن لم يحدث..يعني لم يسألني أحد في دهاليز الديانة

اليهودية، ولوكان حدث ذلك..كنت ادعيت أنني لستُ متدين، وساعد في ذلك أنني كنت أعمل دون عقد، لكن قوتي وفرصتي على قنص الوظائف كانت أكبر، أحيانًا كثيرة كنت أشعر أنني مؤمن.. ولكن إيمان من نوع خاص..

****

في بداية الشهر الثالث من عملي تم تنصيبي مديرًا لصالة البلياردو مع رفع راتبي أضعاف، كل ذلك كان يسعدني جدًا، وكان يقابلني م/ "بل كي" ويحتضني ويمزح معي ونتجول سويًّا في النادي ونتبادل الاقتراحات، جلستُ كثيرًا بيني وبين نفسي أتفكر فيما وصلت إليه والحقيقة أنني كنت أشعر بالخوف، ولكن هذا الشعور لم يستمر، كان يزول عندما أرى النقود أو أشعر بقوتي نحو هؤلاء البلوند، كنت أقابل "صاموئيل" وكنت أشعر بأنه يعاملني بجفاء، وكنت أبتسم بيني وبين نفسي ما زال يعمل في النظافة، إنه تعيس، في تلك الفترة تعرفت على فتيات كثيرات منهن من كانت تنجذب إليّ ومنهن من كانت تقلع عن صداقتي بسرعة، وكنت أعلم السر، مارست الجنس كثيرًا في صالة البلياردو حين فراغها من الرواد وفي منزل إحداهن، وجاءت "روز" حيث كانت تلعب التنس، تعرفت عليها، بعد معاناة،

كانت ترفض أي علاقة مع أي شخص، تأتي وحدها وتظل في ملعب التنس تلعب أو تجلس تقرأ ثم ترحل، كانت جميلة ولها شخصية قوية، وقررت أن أتجنبها، لكن فوجئت بها في صالة البلياردو تقف أمامي وتقول بصوت كثيرًا ما تمنيت سماعه:

ـ هل تستطيع أن تعلمني قواعد اللعبة؟

وقفت مذهول أمام سحرها ثم قلت باضطراب:

ـ أجل، أستطيع، وهذا يسعدني جدًا.

كانت ترتدي الملابس المثيرة، زارتني في المنام كثيرًا قبل أن تتعمق علاقتنا، كنت أحب أن أشاهدها وهي تلعب التنس كانت تبدو طفلة، مارست معها الجنس في صالة البلياردو بعد أن جاءتني عدة مرات كنا نلعب سويًّا، وتغلبت عليها كل المرات وكانت تتوعد لي كل مرة، وكانت تلك الأيام أسعد أيامي، كانت لا تسألني عن شيء سوى أنها تحبني فقط. وفي تلك الأيام بالذات بدأت الكوابيس تهاجمني في المنام شيء ما ينقض عليّ ويخنقني، وكنت أشعر أثناء النوم أن هناك يد قوية تفتح فمي وتقوم بخلع ضروسي وأسناني، وكنت أقاوم لكن بضعف شديد، الأموال وفيرة والمتعة أيضًا والصحة جيدة، كل شيء على ما يرام ولكن كان هناك شيء ينقصني، وكنت

أعرف أنه الأمان هو الذي ينقصني، كنت خائف من أن يكتشفوا أنني لست يهودي ثم يلحقوا بي الأذى؛ وكان وجودها يجعلني أتحمل أكثر من ذلك، كانت تأتي كل يوم من أجلي، نجلس سويًّا في المطعم الخاص بالنادي ونتناول الغداء، ثم نجلس على البار ونتجرع أكواز البيرة وسط حالة من الضحك، حتى قالت لي ذات يوم أنها تتمنى أن أقيم معها في منزلها عدة أيام، وهذا ما كنت أتمناه، كنتُ قد قررت أن أعترف لها وبأن أترك النادي وأتزوجها وخصوصًا إنها هي الوحيدة التي لم تسألني عن ديانتي مثلما فعل الكثيرين، وذهبت معها في ذات يوم كانت سعيدة للغاية وكادت تقفز من فوق مقعد القيادة، واقتربنا من البيت كانت فيلا صغيرة تحدها الأشجار والنباتات وفور الدخول من الباب وجدت علم إسرائيل على طول وعرض الحائط المواجه للباب، اندهشت لكني حاولت التمسك قدر الإمكان، وكانت هي تراقب ملامحي بدقة، تقدمت إلى العلم ومحلقت فيه ثم اقتربت إلى أقرب مقعد وجلست، شعرت بأنني داخل دائرة لا أستطيع الخروج منها. كنت منهك، دقات قلبي تتوالى بسرعة عجيبة قلتُ لها بلهجة عتاب: أنتِ يهودية مثلي يا روز؟

هزت رأسها في سعادة وهي تقول: طبعًا. وإلا ما كنت أحببتك.. ولكني أحمل الجنسية الكندية، وهنا شعرت بقوة لا أعرف مصدرها

وسألتها على الفور بعد أن غيرت ملامح وجهي للأسوأ: كيف ذلك؟

جلست أمامي وبدأ الهدوء يسيطر على المكان ثم تحدثت بتأثر قائلة: عماد، أنت مصري لكنك يهودي هزيت رأسي طائعًا، ثم استأنفت قائلة: في بادئ الأمر ذهبت إلى إسرائيل ووجدت أن من الصعب العيش هناك بعد الانتفاضة، إن الحياة هناك جحيم، الموت يطرق بابك دائمًا، تمشي في الشوارع تخشى كل من حولك، ولكن إسرائيل هنا وأشارت إلى قلبها، ذهبت لتأتي إليّ بمشروب، تأملت الصالة التي بها العلم الإسرائيلي حيث يطغى عليها شيء من الكآبة، وشعرت بخيبة أمل ليس لأنها إسرائيلية، ولكن لصعوبة الموقف والحياة بيننا، وجالت في رأسي أشياء كثيرة، دائمًا ما كانت تصورها السينما والتليفزيون على أن هذا عالم مخيف قاتل، وجاءت بعصير مانجو وضعت أمامي الكوب وقالت لي: اشرب..هذه مانجو إسرائيلي.

قلتُ لها أهي من إسرائيل حقًا؟!

قالت لي: لا، لكنها من حديقة بيت السفير الإسرائيلي.

قلتُ لها: إذن ليست مانجو إسرائيلي.

قالت لي بنبرة جادة: لكن نحن الذين زرعناها.

ـ ولكنها في أرض مصرية.

ـ أرض منزل السفير..ليست أرض مصرية، هكذا قالت وكأنها تلقي درس.

ـ إذن الماء ماء مصرية؟

ـ قالت لي: لا، لا...

قلتُ لها كيف؟!

قالت لي: المياه المصرية جاءت من أين؟

قلتُ لها: من النيل.

ـ والنيل يأتي من أين؟

ـ من إثيوبيا.

ـ ونحن نضع أيدينا على المحبس هناك في إثيوبيا..إذن المانجو إسرائيلي ولا..لا؟

قلت لها: إسرائيلي مائة في المائة، ابتسمت وشاع النصر في وجهها. ثم جاءت بعد ما يقرب من ساعة أسرفناها في الحديث بزجاجة ويسكي "اسكتش" معتق فاخرة وكأسين وظلت تحدثني عن إسرائيل

بكل فخر كانت واقفة تتحرك من حولي ببطء، وفجأة زال من عليها الجمال الذي كنت أراه، تبدلت الضحكة بوجه شاحب عجوز يحمل هموم كثيرة، وكانت تشعل السيجارة من الأخرى.

ـ هل أنت راض عن تلك الأوضاع؟

ـ بالطبع لا.

ـ نحن اليهود ليس لنا وطن سوى إسرائيل، هل شعرت بمصريتك؟

ـ في الحقيقة: ولا بكرامتي.

ـ يصرخون القدس لنا. نحن أحق بالقدس منهم. هكذا قالت بعلو.

ـ الأغنيات والأفلام "والكلام" يتصدرون المشهد السياسي عند العرب ولا خوف منهم وفي النهاية القدس لليهود، ولكن نحن اليهود تعساء. هكذا قلت بحذر.

ـ هذا مصير كل اليهود المغتربين.

قالت لي: ألم تشعر بالغربة بين المصريين الذين يكرهون الديانة اليهودية؟

ـ إنني مولود هنا ولم أذهب إلى إسرائيل وقد تعودت عليهم والقليل الذي يعلم بيهوديتي.

ـ لا بأس. ألم تشتاق إلى القدس؟

ـ نعم أشتاق إليها هي الحلم الأبدي.

ـ وسيناء؟

صمت برهة، وظلت تمحلق في ثم قالت لي: أنت لستُ متدين يا عماد.

امتلأ قلبي بالخوف وتساءلت:

ـ كيف ذلك؟

ـ سيناء ذكرت في التوراة أربعة وأربعون مرة، هي حق لنا ولكنها وديعة عند المصريين إلى أجل مسمى ..

ثم اقتربت مني واحتضنتني بشدة وقالت لي أن الليلة باردة وتريد أن تنام بجواري، ولم أمانع ومارسنا الجنس على ضوء خافت وسماع أغاني عبرية لم أفهم منها شيء، واستيقظت في الواحدة ظهرًا بعد نوم عميق هادئ، وعزمت على الذهاب إلى عملي وفكرت في الذي حدث في المساء، وكنت مقتنعًا بأنني ليس عليّ حرج لم أقل لأحد أنني يهودي هم استنتجوا ذلك وهذه ليست مشكلتي، وكان لدي كثير من

المبررات، وفور دخولي النادي كانت الأعين تتسلط عليّ بشدة على غير العادة، وصلت إلى الصالة وجلست على مكتبي وتناولت القهوة واتصل بي المدير العام يطمئن عليّ وجاءني "جيف" قائلًا:

ـ سأذهب غدًا إلى أمريكا.

ـ قلت له: رحلة موفقة.

ـ قال لي: لم ينتهي هذا العام وأنت هنا.

شاع الخوف في نفسي فنظرت له متسائلًا:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنك ربما تصبح في غضون أسابيع قليلة المدير العام. ابتسم في هدوء ومد يده يصافحني ثم ذهب.

وانتصف النهار وما زال هناك شيء يقلقني إلى أن شاهدت "روز" تتقدم نحوي وعلى وجهها ابتسامة غامضة قالت لي أنها ستسافر لظرف هام عدة أيام ثم ستعود..أسئلة كثيرة وتنبوءات أكثر جالت في عقلي ورأيت أن من الأفضل لي أن أترك النادي في صمت، أنني من الممكن أن أتعرض لبطش الحكومة المصرية، وأن أنول قسط كبير من الإهانة، قرار ترك النادي هو القرار الصحيح..والذي لا بد أن ينفذ في الحال، بالطبع أحزنني أنني سأترك مكان تأتيني فيه النقود

ببزغ، ولكن لا سبيل آخر، كانت لدي القدرة على تَصنع اللامبالاة وأيضًا الشعور بالقوة ويمكن هذا ما كان يميزني، ولكن للأسف لن أستطيع أن أستمر، ذهبت إلى المدير العام وأبلغته برغبتي فانزعج أو اصطنع ذلك، ثم قلت له: الوظيفة التي كان يشغلها "جيف" خالية.

ـ قال لي: نعم.

ـ قلت له: أفضل شخص مناسب لهذه الوظيفة هو "صاموئيل"

ـ رفع حاجبيه وقال لي: لماذا؟

ـ لأنه صادق في عمله.

ـ قال لي: لا مانع إذا أخلص وقدم لي رؤية.

في نهاية الشهر، أخليت مكاني وجمعت متعلقاتي وذهبت، لم يرغب أحد في وداعي حتى م/ "بل كي" كأنه لم يصدق أنه تخلص مني. ومن حُسن الحظ أن "روز" كانت قد سافرت من بضعة أيام إلى فرنسا. شاهدت "صاموئيل" يجري نحوي ويحتضني، قال لي: ما زلت على يقين بأنك لست يهوديًا.

قلت له اهتم بعملك ولا تشغل عقلك بهذه الأشياء ..

****

٣. تريسي

عندما حان موعد التجنيد، بدأت أكون كرهي للمؤسسات الحكومية بشكل عام، لما بدأت أرتب أوراقي ومستنداتي لدخولي الجيش، كم المعاناة التي كنت أحياها كل يوم عندما ألتقي بموظف ميري أو مدني، شيء غريب لا أعرف من أين يأتون بهم سحنة واحدة وهيئة واحدة كأنهم خريجو مدرسة واحدة، يتفننون في قتل الوقت ويبرعون في حرق الدم، كسالى مهملين، كنت أرى أن الدولة يدخلها ملايين الجنيهات من شراء الاستمارات والنماذج والطوابع، كم هائل من الأوراق كنت أذهب لأشتريها مما دفعني لشراء نسخ كثيرة لأتجنب مشقة التسول، ولم يجنبني هذا التصرف من التسول مرة أخرى، رغم أنهم يستطيعون تقليص هذا الكم من الأوراق، ولكن لا بد أن يستنزفوا هذا الشعب الكادح، وهناك شيء عجيب، إذا دخلت وزارة الكهرباء أو التموين أو الماء، أو أي مصلحة حكومية..ستجد العاملين في تلك المصالح يشبهون بعضهم البعض، ويتحدثون لغة واحدة.."سلبية"، نفس السلوك يتبعوه. لا أعرف من أين يأتون بهم، وكنتُ أتخيل أن هؤلاء

الموظفين قبل قبولهم في الوظيفة يخضعون لاختبارات كثيرة. تُشرف عليها لجنة مكونة من مباحث أمن الدولة، وسكرتير رئيس الجمهورية للشؤون الداخلية، بجانب المباحث العامة، وقدرات الموظف الذي سيصبح مديرًا كبيرًا تتلخص في إيمانه بالنظام القائم "وبجملة سحرية إذا تفوه بها تُفتح له جميع الأبواب وهي: "الشعب المصري مابينفعش معاه الذوق يا باشا ده شعب نمرود عايز الكرباج"، شاهدت كثير من الزملاء يمزقون الأوراق ويلعنون التجنيد قائلين: رضينا بالهم والهم لم يرضى بنا. كان يزداد غيظي حين الذهاب إلى "الهايكستب" تلك الكلمة المستفزة التي حاولت أن أفهم معناها حتى قال لي صديق: إنه كان معسكر أمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية وسمي على اسم أحد الضباط الأمريكيين. هذا المجمع الفوضوي الذي قبل الذهاب إليه تأخذ نفسًا عميقًا كمن سيواجه أمواج عاتية، عانيت كثيرًا..مرمطة وذل وقهر حتى وصلت إلى الفرز الطبي وكنت أظن أنني داخل الجيش لا محالة مما شاهدت من زملاء لديهم عاهات وتم تجنيدهم، كان عندي تقوس في الساق اليمنى غير ملحوظ لا أعرف سببه وربما كان وراثي، عند الكشف أشرت للطبيب عليه، مما دعى الطبيب أن يوفر جهده في الكشف بجملة واحدة "غير لائق طبيًا" وكنت سعيد بذلك طبعًا..

****

ـ مش كفايا بعد إيه خلاص مش طايق تشوفني.

ـ قولتلك شوفي حياتك بعيد عني، عايزة إيه مني؟

ـ ترجع لعقلك..ونكمل سوا..

شعور مخيف انتابني ساعة أن نطقت بتلك الجملة..ولم أدري بنفسي إلا وأنا أصرخ في وجهها:

ـ إبعدي عني.

ـ يعني مفيش فايدة؟ قالتها بانكسار.

ـ لأ..مفيش فايدة..

ثم اقتربت مني وبصقت في وجهي، ثم وقفت تنهرني بالسباب ثم أعادت البصق عليّ مرة أُخرى، ثم انهارت وبدا جمع من الناس تلتف حولنا، ولما صوتها ازداد علوًا بدأت الناس تقترب مني لتشتبك معي، وحينها قررت أن أركض بكل ما لديّ من سرعة، إلى أن تخلصت منهم....بالطبع لم أستطع أن أنجو من الهواجس التي كانت تلاحقني في كل وقت، حتى علمت أنها في المستشفى، وكثيرًا ما كنتُ أجلس وأفكر فيها وفي العودة إليها لكن الظروف قاسية، أعلم أنني جبان، وأفضل أن أكون جبان على أن أكون ظالم.

****

اعتادت الجلوس أمامي حيث كنت أتمركز على ماكينة "الكابتشينو" في الكافيه الذي عملت فيه مؤخرًا، كانت كثيرًا ما تنظر إليّ وتمضي جلستها وهي ترشف من الكابتشينو وتقطع من الكيك وتصرف وقتها كله أمام "اللاب توب"، وكنت أشاهدها وهي تنفخ ضيقًا ثم تذهب وعند مدخل الكافيه كانت تلتف بطريقة مصتنعة وتلقي نظرة عليّ تحوي معان كثيرة، الفضول سمة من سماتي التي لا أستطيع التخلي عنها وكثيرًا ما كانوا أصدقائي ينتقدون هذا السلوك فيّ، لكن في واقع الأمر أن الفتاة جميلة ومثيرة ولها نظرات ساحرة وكانت تختصني أنا بتلك النظرات مما جعلني شغوف بمعرفتها، كانت ترتدي الجونيلات القصيرة وتتعمد الجلوس أمامي وتظل تفتح ساقيها وتغلقها وقد حاولت أن أشاهد أي شيء لكنني فشلت لعدم وضوح الرؤية، وكان يعمل بجواري شاب ينتقدني على الدوام، مسكين وأيضًا حاقد لأنه يعرف علاقتي وحبي للبلوند وأيضًا شاهد النظرات التي كانت ترميني بها، انقطعت مرة واحدة عن الكافيه وهذا الشيء أزعجني وأسعد آخرين، وكنت أتمنى أن أشاهدها مرة واحدة لأحدثها وبالفعل الأمنية تحققت وشاهدتها وأنا خارج من العمل في طريقي إلى البيت، كانت جالسة في كافيه آخر يقع على بعد مائتين متر، وانتظرت حتى خرجت كنت أفكر ما الذي دفعها لذلك

هل أنا السبب وأسأت الظن بها؟ عزمت على سؤالها رغم أني أعرف أن هذا الشيء تعدى على حريتها، شاهدتني قادمًا نحوها وعيناي مصوبتان عليها تسمرت مكانها وظلت تمحلق في عيني ببراءة شديدة بادرتها بالسلام.

قالت لي أنها بخير.

قلت لها بنبرة رقيقة: هل حدث شيء جعلك تنقطعين عن الكافيه؟

قالت بتلقائية: لا شيء إطلاقًا ولكن هنا الأسعار أقل بكثير.. هذا كل ما هنالك. في الحقيقة كنت أراقبها فقط ولا أعي ما تقوله وكنت أتفحص وجهها بدقة، كانت تضحك بطريقة طفولية لم أرى مثلها من قبل، عيناها كانتا تضحكان وهذا كان مثير في غاية الروعة، جذبتني الكلمات التي كانت تقولها، إنها في الواقع لم تهتم وكانت تتحدث بعفوية تخلت عن الكلمات العقيمة، الذي نحرص نحن على قولها وتنفيذها "البرستيج" وكانت واضحة شفافة، تراجعت خطوة كمن يريد الانصراف، أو تجنبًا لمضايقتها وأن أمنع نفسي الشريرة من التطفل عليها.

قالت لي قبل أن تذهب: هل تستطيع مساعدتي؟

طبعًا. هكذا كنت متلهفًا.

ابتسمت وقالت: أنا في حاجة إلى شقة صغيرة في حدود ألف وخمسمائة جنيه مصري.

قلت لها هل تقطنين في فندق؟

قالت ببراءة:

ـ لا. ولكن الشقة التي أقطنها غالية، ثم هزت رأسها وباتت كفراشة قلت بيني وبين نفسي إن أمثالك لا يقطنون في شقق وإنما فوق الزهور. كلمات لا تخرج إلا لأمثالها..هكذا الرومانسية تتجسد في كلمات رقيقة ونظرات توحي بالأمان..وهذا ما كنت عليه رغم أنني لست كذلك.

ـ هذه مسألة بسيطة امهليني يوم واحد فقط.

ثم قالت لي وهي تضحك: على أن نتقابل في هذا الكافيه، اقتربت منها وتمنيت أن أحتضنها ولكن تراجعت، ثم هزيت رأسي طائعًا..

****

ده مستحيل الأسعار هنا خيالية أنت بتضيع وقتك. هكذا قال صديقي الذي يعمل في العقارات، عندما أبلغته بأنني أبحث عن شقة في هذه المنطقة بهذا المبلغ.

لم أهتم بكلامه وبدأت البحث بمعاونة البوابين، وقبل أن ينتهي اليوم وجدنا شقة مناسبة للغاية كانت في الأصل روف وقام مالك العقار بسقفها بالخشب وتقسيمها إلى غرفتين ومطبخ وحمام وصالة صغيرة والإيجار كما طلبت مني بالضبط، حملت هذه البشرى وذهبت لها، عندما دخلت الكافيه وجدتها جالسة تنظر في اللاشيء كأنها شاردة، ولما وقفت أمامها قامت تصافحني بحرارة، ثم بحلقت في عيني طويلًا وكأنها تستحلفني بالله أن أكون وجدت شقة مناسبة، قلت لها دون مقدمات:

ـ أنتِ محظوظة شقة مناسبة وبالقرب من هنا، وأيضًا بها أثاث جديد.

كانت سعيدة للغاية وقالت لي: أنها بحثت ولكن دون جدوى، وأنها لم تعد تستطع دفع إيجار شقتها الحالية، احتفلت بهذا الخبر معي مؤقتًا كما قالت لي حيث عزمتني على كابتشينو وقطعة كيك مغلفة بالشوكولاتة، وذهبنا بعد ذلك لتعاين الشقة لم يزعجها أنها في الطابق السادس وأن العمارة ليس بها مصعد، قالت لي أن هذا ليس عائقًا إطلاقًا، انطلقت داخل الشقة وهي سعيدة جدًا، كانت لا تريد أكثر من ذلك أبدًا، وبدأت تجذبني من يدي لتأخذ رأيي في أشياء بسيطة،

كنت فقط أراقبها، وكانت الشقة ليس بها غرفة نوم، كانت "تُصنف بالشقق التي بها نصف أثاث، يعني أنتريه أدوات مطبخ كاملة، تكيفات"، قالت أن لديها مرتبة أسفنج تستخدمها كسرير، نظر صاحب الشقة إليّ وقال: أنه يستطيع شراء غرفة نوم لكن تتحمل معه التكلفة، قالت: أنها لا تحب النوم سوى على الأرض، ثم نظرت إليّ وقالت: عماد أشكرك بشدة بدأ صاحب الشقة ينظر لها بعينين جائعتين، ولما انتهينا من كتابة العقد، قلت لها: نحن في حاجة لسيارة نصف نقل لحمل متعلقاتها؟

قالت لي: إن متعلقاتها قليلة ويكفي تاكسي، كانت الأشياء قليلة بالفعل حيث ذهبنا إلى مسكنها القديم، و قابلنا البواب بوجه شاحب حزين قال لي: إن هذه الفتاة لا مثيل لها في العمارة وأنه يأسف لرحيلها.

قلت له بفضول: ليه؟

قال لي: كانت بتاخد عيالي الصغيرين وتذاكرلهم الإنجليزي.

قلت له: إنت اللي طلبت منها.

قال لي: لا..دا صدفة والله لما كانت طالعة مرة شافت بنتي بتذاكر قدام الأوضة فبصت في الكتاب الإنجليزي. وقالتلي: أنا عايزة أعلم أولادك.

صعدت إلى شقتها وكان معي البواب، ثم حملنا الأشياء، لاب توب وكرتونة بها بعض الكتب والأوراق. وحقيبة بها ملابسها، وطابعة ورق، هذا كل ما تمتلكه، وذهبنا إلى المسكن الجديد، وأثناء جلوسنا في التاكسي سألتها بحذر: هل حقًا كنتِ تعلمين أبناء البواب اللغة الإنجليزية.

وضعت يدها على وجهها وهي تقول لي: أوه، عماد لقد نسيتهم ثم استطردت: لا بأس سوف أعود لهم من وقت لآخر. ثم قالت لي: التعليم المجاني من أسوأ الأشياء في مصر..وصلنا إلى شقتها الجديدة ونزلنا من التاكسي وحملنا الأشياء إلى الشقة، حيث بدأنا في ترتيب الأشياء، حتى انتهينا في الثامنة مساءًا، وقبل أن أذهب جاءت لي بظرف به نقود ومدت يدها لي قائلة: هذه هي عمولتك..إنني فعلت ذلك ليس من أجل العمولة وإنما من أجل التقرب إليها، وأن أجتمع بها، ممارسة الجنس مع البلوند لها مذاق آخر استمتاع عجيب ولذة مفرطة وهذا ما كنت أسعى إليه في باطني، أبيت بشدة أن آخُذ منها شيء، وانصرفت. هناك أشياء تتضارب في نفسي هل هي تعاملني على أنني صديق فقط؟ إنها لم تحدثني عن زوج أو صديق وإن كان لها فأين هو من هذه الظروف التي تمر بها، أن ما فعلته من أجلها ليس للصداقة فحسب وإنما لأشياء كثيرة إنها بالفعل فتاتي التي بحثت عنها، جميلة،

عملية، متواضعة، كل شيء يجعلها فرصة.

في الخامسة من اليوم التالي اتصلت بي وجاء صوتها الناعم وهي تقول "عماد" ماذا ستفعل غدًا؟

ـ أنتهى من عملي في الخامسة. ثم لا شيء بعد ذلك.

إذن أنا أدعوك لتناول العشاء في بيتي وإياك أن تعارض، كانت فرصة سعيت من أجلها كثيرًا..هل حانت بهذه السهولة؟ ذهبت إليها وأنا عازم على ممارسة الجنس معها، أخذت دشًا ساخنًا وارتديت ملابس كلاسيك أنيقة وصففت شعري، وحملت باقة زهور، وطوال الطريق وأنا أتخيل الممارسة وكيف ستكون..في غرفة النوم..أم في المطبخ..ممارسة الجنس في الصالون أو الحمام لها مكانة عندي وتمنيت ذلك..في أي مكان أرادت فأنا مستعد حتى لوكان في جهنم ..طرقت الباب ففتحت لي فوجدتها في كامل أناقتها ترتدي فستان أسود سواريه به فتحة كبيرة من الخلف، ويفوح منها عطر نفذ إلى أعماقي، جذبتني للداخل وكانت قد أعدت مائدة من الطعام الشهي هكذا كانت تقول الرائحة التي تصعد منه في شكل أبخرة، أجلستني وجلست جواري وراحت تحدثني كيف قامت بالطهي بعد أن جاءت بالطعام من السوق. قطع من الدجاج وأرز وشرائح بطاطس وسلاطة أجزائها

كبيرة. وبدأنا الطعام وفي الحقيقة لم أستطع أكل شيء، كان الطعام رديء للغاية لا يوجد طعم، وهذا هو الأكل الإنجليزي، بينما هي كانت تأكل بشهية وكنت أراقبها وأنا أمثل الأكل ولكن لا شيء استقر في معدتي، وكنت جائعًا جدًا، ولكن لا بأس، شعرت هي بذلك وقامت على الفور وجاءت بقطع من الكيك المحشو، التهمت قطعتين ثم جاءت بكوزين بيرة، وجلسنا نتحدث قصت لي نشأتها وكيف كانت مريرة، إنها تحب والديها جدًا وأنها كانت تعيش مع جد تها ولما سألتها عن أبويها قالت لي: أنهما يعملان في التدريس في جنوب أفريقيا، أما جدتي فلا أشعر بها أبدًا تجلس في الشرفة تستمتع بالهواء البارد وهي ملتفة في غطاء، وكنتُ أعترض على ذلك خوفًا عليها لكنها كانت تشتمني ثم تقول لي: دعيني أستمتع بوقتي. ولما ماتت قررت أن أبحث لي عن عمل خارج إنجلترا، وأن أبدأ حياتي بعيد والحقيقة التي جاءت بي إلى القاهرة هو حبي للرقص الشرقي، غير أن في ذات ليلة مؤلمة قبل مجيئي للقاهرة، هاجم البيت لصوص سرقوا كل شيء وقبل أن يرحلوا اغتصبوني وفعلوا بي أشياء مقززة تركت بداخلي جرح عميق، لمعت عيناها وراحت تبكي احتضنتها بدفء وقبلتُها، ثم قالت لي إن حياتها مريرة، بعد أن جاءت إلى القاهرة في نهاية التسعينات بدعوى من صديقة لها تعمل بالتدريس،

أقامت معها بضع ليال، وفي ذات ليلة شاهدت زوجها يدخل غرفتها ويزيح عنها الغطاء ليحاول اغتصابها قاومته بشدة، ولما اتهمته بذلك قام على الفور بضربها أمام صديقتها بأن يضع يده اليسرى على خدها وباليمنى يسدد لها اللكمات مما جعلها تتدفق منها الدماء بغزارة، لم أستطع تهدئتها كانت تبكي بمرارة، واستمرت الليلة حتى الثانية بعد منتصف الليل، وفي ظل ذلك كنت أقاوم الشهوة التي تدفعني نحوها، وكنت أحتقر نفسي رغم أنني بلغت من العناء أقصاه، لكن في النهاية نجحت في التغلب عليها، وقالت لي أيضًا إنها التقت بالراقصة "بوسي" التي شاهدت لها ليلة في أحد الفنادق وقامت بالتقاط صورة تذكارية معها، حياة مليئة بالتقلبات تختفي وراء وجه طفولي ملائكي تراه تشعر بأن السعادة والأمان يحيطها من كل الجوانب، حقًا وراء الابتسامات نكبات..

****

بدأت تسيطر عليّ كليًا، حاولت الاتصال بها لكني تراجعت لقد فقدتها بضعة أيام وأنا لا أعرف عنها شيء، وزعمت بأن القطار توقف إلى هنا عاملتها بكل أدب وهي أيضًا كانت صدوقة هل هذه هي النهاية، لِمَ لا؟ سيطرت على مشاعري وتصرفاتي حالة من الكآبة

وكنت أود أن أراها لحظة واحدة لأقول لها أنني بجوارك وتحت خدمتك أحميكي من أي مكروه، وهذا لم يكن حب بقدر ما كان فرصة تتمثل في فتاة جميلة، ليال من الانتظار كانت تمر عليّ بصعوبة. وجاءت المبادرة منها اتصلت بي لتبلغني سلامها كنت سعيد بهذه المكالمة التي امتدت إلى النصف ساعة، حدثتني عن أشياء كثيرة وكانت تود أن تراني، ذهبت إليها يوم الأحد دون موعد، لم أستطع منع نفسي عنها قابلتها على السلم كانت في طريقها إلى الكنيسة قالت لي: أوه عماد ماذا تفعل ؟

قلت لها أنني كنت قريب من هنا فصعدت أطمئن عليكِ.

شكرتني بشدة وقالت لي أنها ذاهبة للصلاة وعرضت عليّ الذهاب معها، ولم أتردد، ذهبنا إلى الكنيسة وكانت سعيده للغاية، دخلت الكنيسة لأول مرة وكانت مزدحمة، أعطتني شمعة كلما أضأتها تطفئ لا أعرف لماذا بينما هم يمسكون بالشموع دون أن تطفأ شمعة أحد منهم، كانت الترانيم تملأ أرجاء الكنيسة وكان البلوند لهم نصيب كبير من الوجود بجانب عدد قليل من الأفارقة، وبدأنا نمشي في صف واحد وكان "القس" يطعمنا شيء لا أعرف ما هو استطعمته دون السؤال وابتسم لي ثم أضاء شمعتي التي ظلت تنطفئ كثيرًا،

وجلسنا نستمع إلى عظته، وكانت الأعين تتسلط عليّ.

قالت لي: عماد، لم أشعر من قبل أنك مسيحي..

انتبهت لدهشتها وفي نفس الوقت سعادتها، فقلت بسرعة:

ـ نعم "تريسي" لم يظهر عليّ لأنني لا أحب أن أتظاهر بأني متدين، هكذا قررت أن أكون مسيحيًا لبعض الوقت، إنها لن تطلع على بطاقتي، الأمر يتطلب شيء من الحرص.

ـ لماذا؟

ـ هذه علاقة بيني وبين الرب فقط..ليس للناس دخل فيها.

ـ أنا أعني أنني لم أشاهدك في الكنيسة من قبل.

ـ الرب موجود هنا في قلبي وليس في الكنيسة.

ـ عماد، هذا الكلام لا يقوله إلا مؤمن.

ـ أنا مؤمن يا تريسي. ولكن إيماني يترسخ في فهم المبادئ والقيم التي يحُث عليها الدين وليس في الذهاب إلى الكنائس.

ـ عماد كم أنا سعيدة بك.

إن لم يجمعنا الحب سوف يجمعنا الدين، هكذا تعلمت في مجتمعي

وهكذا بدا الأمر يمضي في مجراه الطبيعي، كانت الابتسامة ساحرة وهي تتأملني وكأنها تتأمل جوهرة في فترينة، بالطبع أنا لست جوهرة لكنها هي كانت متدينة..

وخرجنا وجلسنا في كافيه وتحدثنا قليلًا وكانت فخورة جدًا بي. الأيام تمر ولا أعرف ماذا تحمل لي ما زلت أعمل في هذا الكافيه الملعون، ما زلت أقيم في هذا المنزل العقيم، الأشياء تزداد سوءًا والكآبه تحيطني، كنت أشعر في بعض الوقت أنني إنسان غريب أعيش في مجتمع غريب عني، كيف استطاعوا المصريين التأقلم على هذا الفساد؟ وكيف عاشوا كما تعيش الحيوانات؟ وهل أنا الوحيد الذي يبحث عن الكرامة؟ كان البعض ينظر إليّ بكراهية ويقول أنني إنسان كافر. كفرت بقضاء الله وقدره. وكنت أقول لهم هل يرضى الله لعباده الظلم والمهانة؟ كانوا يقولون لي بنرفزة: المؤمن مصاب؛ النهاية الكل يلعنني، الكل يتبرأ مني. وكنتُ أمضي في هذا الطريق وأعلم أن الملعونين يقابلون بعضهم البعض، ولكن هل تريسي ملعونة مثلي؟

وفي يوم اتصلت بي وقالت: «عماد» ماذا لديك غدًا؟

ـ لا شيء.

ـ هل تستطيع الذهاب معي إلى العتبة لشراء ستائر للشقة؟

ـ نعم، متى تنوين؟

ـ انتظرني أمام المترو الساعة التاسعة صباحًا.

جئت لها وما زال النوم يطرق عيني وما زال جسدي يعاني الخمول، أما هي استيقظت في السابعة. تناولت عصير البرتقال ثم نزلت لتمارس رياضة الجري نصف ساعة، ثم بعدها صعدت وأخذت دوشًا باردًا، ثم ارتدت ملابسها وخرجت؛ ولذا كانت أنيقه مفعمة بالحيوية والنشاط. هم كذلك البلوند يعرفون كيف يعيشون، تقابلنا وتصافحنا بحرارة، كانت الشمس تتهيأ لترسل إلينا حرارتها، وكان الجو ما زال يحمل نسمات الليل الباردة، وكانت تبدو كالعادة أنيقة ترتدي ملابس بيضاء، دخلنا المحطة وانتقلنا إلى الاتجاه الآخرالمؤدي إلى المرج، وكانت العربات مزدحمة، حيث تلك الساعة هو موعد ذهاب الموظفين والعمال لأعمالهم. ونجحنا في الوقوف بجوار الباب. كانت الأعين تتفحصنا وهذه سمة المصريين، وكنتُ أعتقد وما زلتُ أعتقد أن ذلك يرجع إلى أن معظم من يستقلون المترو من الموظفين، والتطفل ليس غريب على الموظف المصري حيثُ تعود ذلك، من كثرة الفراغ المصطنع، فهو برع في التقاعس عن وظيفته بحجة أنه مضغوط، فهو لا يفعل شيء سوى التحدث والنميمة

مهملًا مصالح المواطنين ينظر فقط إلى وجوههم التي يحتقرها ثم يبادرهم البرود والتعالي، ومن المؤكد أنهم سيجدون فيّ أنا وترسي قصة قد تسليهم بضعة أيام، تحدثنا وكنا لا نبالي حتى جاء إلى جوارنا شاب صغير أخرج من معطفه «القرآن» وراح يتلو آياته بصوت عال ومزعج وكان يصوب عينيه علينا نحن بالذات، لم نستطع الحديث، وهمست في أذني قائلة: ماذا يقول إنه مزعج؟

ـ قلت لها ربما يكون ذاهب إلى امتحان أو شيء من هذا القبيل، ولم أعرف لماذا لم أقل لها أنه يقرأ القرآن.

ـ وليكن، ليست هذه طريقة للمذاكرة، إنه مزعج للغاية. هزت رأسها في استياء.

وبدأ الضيق يملأني تجاه هذا الشاب، حقًا من أعطاه الحق في أن يتعدى على حدود الغير ولو بقراءة القرآن، أليست هناك مساجد لممارسة هذه الطقوس أو على الأقل في بيته حيث يفعل ما يشاء، إنه بالفعل يجهل هذا الكتاب الذي يحمله ويتغنى به، لو يدرك ما فيه حقًا ما فعل ذلك.

ـ إذا سمحت وطي صوتك..دي مش طريقة.

ـ طبعًا واجعك اللي بتسمعه..أُمال يوم القيامة هتعمل إيه. ثم

سدد إليّ نظرة حادة وقال: تقدر تنزل المحطة الجاية وتركب في عربية تانية.

أدركت على الفور إن الحديث معه لا يفضي في النهاية إلى حل راقي وإنما معركة أنا فيها الخاسر بعد أن تعاطف معه الكثير وبدأوا يشيروا إليّ، نزلنا وركبنا عربة أخرى، حيث كانت بها باعة متجولون قالت لي: كيف يحدث ذلك في المترو؟

ـ التسول في كل بلاد العالم يا «تريسي» وأعتقد أن هذا أفضل بدلًا من أن يكونوا لصوص.

ـ لا بد أن تكون هناك رقابة وأن تقف الدولة بجوار هؤلاء.

ضحكت رغمًا عني وقلت لها: إن الدولة لا تقف بجوار الكفاءات فهل ستقف بجوار هؤلاء!

أومأت برأسها في استياء، نزلنا في محطة العتبة وما زال الجو رطب وفور خروجنا أحرقتنا الشمس، والضجيج وصل إلى مداه من صياح الباعة وكلاكسات السيارات والنداءات.

قالت لي مازحة: هنا المخلفات بالجملة الناس يفعلون ما يشاءون. كانت القمامة في كل مكان والرائحة العفنة تصعد منها ودخان العربات

يزكم الأنوف والناس كشرة لا طاقة لها. معارك هنا وهناك السباب يأتي من كل ناحية، ربطت يدها في ذراعي وشدت عليه فشعرت بأنها خائفة. في الواقع إنني أشد الناس كرهًا لهذه الخروجات وإذا كان الأمر ضروري فيكون في المساء، الليل يخبئ أشياء كثيرة، وفجأة شعرت بيدها تجذبني بشدة ثم قالت لي بدهشة:

ـ عماد ما هذا بحق السماء؟ وإذا بي أرى رجل متسول نائم أسفل سيارة، وهذا عادي، لكن الغريب في المشهد هو الكلب البلدي الذي جاء ورفع ساقه وبدأ يتبول على رأس هذا الرجل..بتلقائية اندفعت ناحية الكلب وأنا أهشه من على هذا المسكين.

قالت لي وهي تصرخ:

ـ عماد أنت بذلك أذيت الكلب.

نظرت لها نظرة طويلة، بدا عليّ الغيظ والضيق ثم قلت بعنف:

ـ حقًا الديمقراطية وحقوق الإنسان تُطبقونها على أنفسكم..هذا الكلب يتبول على إنسان والإنسان كرمه الله على سائر المخلوقات.

قالت لي: لا أقصد، ولكن الرجل يرى ولا يبالي.

ـ لأنه مريض..مريض يا تريسي.

ـ على العموم أنا لم أتعمد مضايقتك، ولكن كنت أتمنى في تلك اللحظة أن يكون معي كاميرا وألتقط هذه الصورة النادرة.

قلت لها: إن هذه الصورة في بلادنا ليست نادرة..شعرت بالضيق الذي بدا على ملامحي، فغيّرت الحديث..وبدأنا في البحث عن الستائر، وعاودني الضيق مرة أخرى ناحية هذا النوع من الخروجات، إن الذي دفعني لصحبتها ليست الشهامة فإنها ليست مني في شيء ولكن أردت توثيق العلاقة بيننا، جئنا بالستائر من متجر ضخم يبيع المستلزمات المنزلية وكانت الأسعار مناسبة، دخلنا محل عصائر مثلجة وجلسنا نشرب عصير القصب، وخرجنا إلى حرارة الشمس مرة أخرى، وقفت بجوار بائع يبيع النظارات الشمسية رديئة الصنع كان يصفها فوق فترينة صغيرة يحملها فوق يديه، أعجبتها واحدة ووضعتها فوق عينيها، كانت بالفعل تشبه جميلات هوليوود، انبهرت بها وقلت لها إنها رائعة.

ـ قلت للبائع: بكام النظارة؟

قال لي: خمسة وعشرون جنيه. إنه ضلالي لا شك في ذلك، أخذتها منها ورددتها له وتركته صاح يناديني قائلًا: المفروض إن إحنا مصريين يعني نشيل بعض وناكل اللقمة سوا. نظرت له وأنا صامت

حتى صاح : عايزها بكام؟

ـ عشرة كويس.

ومن هنا إلى هنا أخذتها بإثنى عشر جنيه، كانت الساعة تجاوزت الثالثة عصرًا، وكنت مرهق للغاية وساخط على كل شيء، وصلنا إلى بيتها بعد أن استقلينا تاكسي على نفقتي، لا شك بأن ذلك أغضبها، المسألة بالنسبة لها فسحة أما أنا فمشقة. ألحت عليّ بأن آخذ دوشًّا باردًا وبالفعل فعلت فشعرت بأنني أزحت من فوق جسدي كآبة بجانب العرق والأتربة، ارتديت ملابسي وانطلقت على الفور إلى محل عملي.

****

كنت أبحث عن فرصة لممارسة الجنس معها، إن الممارسة الجنسية ستجعلنا نسيج واحد لكن الفرصة تأخرت، وقبل أن ألتقي بها كنت أسعى لمضاجعة أي فتاة، التقيت بفتاة من أفريقيا تدعى "مارجوت" كانت سمراء لم أقابل فتاة في نظافتها. وكنت حين أضاجعها تقول لي: "عماد" قبل أن نجتمع أرجوك كن صريحًا هل اجتمعت بفتاة قبل مني؟

كنت أقول لها إطلاقًا حبيبتي.

ـ "عماد" لأتجنب أي عدوى ممكن تأتي من امرأة ليست نظيفة،

ثم تأتي إليّ بمطهر وتلح عليّ لأستحم، كانت تأمل أن تكون زوجتي رغم السلبيات التي كانت تملأني وكانت تصرخ في وجهي: أنت تعاملني على أنني مومس لا تأتي هنا مرة أخرى، كانت محقة في كل ما كانت تقوله، ولما تأكدت من أنني ألهث ورائها من أجل الجنس فقط، تخلصت مني بمرافقة صديق من بلدها، كانت تتعمد أن تقابلني به والحقيقة أيضًا أنني مللتها ولم تبقى لي رغبة فيها، وتعرفت أيضًا على فتاة من آسيا تدعى "حنان" لم أرهق معها طويلًا في أول لقاء بيننا قلت لها أنك تملكين أرداف هائلة ضحكت فاصطحبتها إلى شقة صديق ومارست معها الجنس واستمرت بيننا العلاقة لوقت لا بأس به كانت لا تريد مني إلا الجماع فقط كانت من فصيلتي، فتيات ونساء وحياة لا تخلو من الضجر واليأس، الأحلام محدودة وغير واضحة المعالم، والنقود التي نأخذها نظير العمل ربما لا تكفي لسد حاجتنا من الطعام والشراب بل لا تكفى قطعًا لسد حاجتنا، مما أدى إلى فقدان الحلم، حلم الزواج والحياة الكريمة.

****

وبعد مرور الأيام اتصلت بي وكنت في انتظار هذه المكالمة جاء صوتها حزين للغاية قالت لي: لقد ماتت صديقة لها في حادثة سيارة

هناك في لندن. كانت تنطق الكلمات ببطء وحشرجة كانت حزينة جدًا حتى أنني لم أتذكر متى وضعت السماعة لتنهي المكالمة الحزينة، كأنها ظلت تحكي للعالم كله على حزنها على صديقتها، كانت تود أن أذهب إليها أهون عليها هذه الصدمة ولكن طبيعتي لا تملك ذلك، إن الحزن شيء لا يطاق ودائمًا ما أتجنبه فكيف أذهب إليها وأشاهدها وهي تبكي وتشكو، غير أنني لا أفقه التعامل في تلك الظروف شيء مؤسف حقًا، مضت الأيام ولم تتصل بي فأدركت أنها غاضبة وعزمت على الذهاب إليها، وفي أثناء الطريق كنت أخشى أن تغضب مني، ولكن كان شيء قوي يدفعني للذهاب إليها وليكن ما يكن أنني فعلت معها كل ما يفعله الرجال الشرفاء والآن حانت الفرصة. فتحت الباب، لأشاهدها بقميص نوم شفاف برز من ورائه ثديها وجسدها الذي تلونه بشرة حمراء، شعرت بدوران وكانت تتحدث ببرود مما أثار أعصابي أكثر، أجلستني في الصالون وذهبت إلى غرفة نومها وجاءت وهي ترتدي بنطلون وبدي. أوه "عماد" كنت على وشك الاتصال بك. هكذا بادرتني.

ـ إنني كنت قريب من هنا فصعدت أطمئن عليكي لقد كنت قلقًا جدًا من أجلك.

قامت وأعدت غداءًا خفيفًا تناولناه، ثم أعقبنا عليه بكوزين بيرة ثم بدأت تقص عليّ قصة صديقتها التي ماتت، لم أستمع إليها أبدًا ولكن كنت أفكر في ممارسة الجنس معها هذا كل ما كان يشغلني، انتبهت إلى صوت بكائها فبدأت أركز فيما تقوله، ادعيتُ الحزن رغمًا عن أنفي ولكن لم تزفر عيني بدمعة واحدة، وكنت أود احتضانها فقط، اقتربت مني ومالت برأسها على كتفي وهي مستمرة في القص والبكاء، "وكانت يداي تُطوقها كثعبان خبيث يريد حصار فريسته" واستأنفت بنفس النبرة: إنها كانت تماثلني في كل شيء، وكان البعض يظن إنها شقيقتي..كانت كلماتها صادقة تخرج من صميم قلبها ولكنها لا تعرف أنها بين يد رجل لا يعرف عن الصدق شيء، وشيئًا فشيئًا رأسها ثقُلت فنامت فوق حجري، وجهها في وجهي أغلقت عينيها واستسلمت لنوم خفيف "نوم الذي يبحث عن الأمان"، بدأت أشعر بحرارة في عروقي ودقات قلبي الخفاقة تتوالى في سرعة وشدة رهيبة. إنها فرصة لن تأتي مرة أخرى، انحنيت برأسي على وجهها اللامع وشفتيها المستسلمة. لفحتني أنفاسها الساخنة فدفعتني بقوة "كمن ينطلق بسيارة مرة واحدة". فأخذت قبلة خفيفة هزت رأسها وامتصت شفتيها ثم عادت ثابتة مرة أخرى، شجعني هذا التصرف فظننت أنها تعلم وتستجيب لي، ثم التهمت شفتيها الرقيقة في فمي...

فدوت منها صرخة ملأت أرجاء الشقة وقامت مفزوعة تنظر إليّ في رعب، وقفت متصلب لا أملك شيء.

"عماد" ماذا فعلت؟ أنت. أنت..ثم وضعت يدها على رأسها وبدت مذهولة تراجعت عدة ياردات وبدأت تبكي من جديد ولكن بمرارة. جمعت شتاتي ثم قلت لها مندفعًا "تريسي" أنا أحبك. أحبك، وكنتُ أحاول أن أبرر ذلك، ونسيت أنها ليست فتاة مراهقة، قالت لي وهي ترفع يداها لأتوقف:

ـ انتظر من فضلك؛ ثم تنهدت تنهيدة طويلة وبدأت تنظر في إتجاه آخر بعيدًا عني، ثم جلست واستأنفت وأنا مرتبكًا:

ـ أنا لا أستطيع التخلي عنك لحظة واحدة واقتربت منها ولكنها أبعدتني بحركة من يديها. حاولت أن أقبل يدها لكنها أبت، شرعت في الاعتذار كثيرًا حتى هدأت بعض الشيء. قلت لها إنني أخطأت ولكن مرة واحدة ويبقى أن تسامحيني، هزت رأسها وابتسمت فمسكت يدها وقبلتها وهي تجذبها قائلة: لا بأس.

قالت لي أنها تُحبني ولكن كصديق وإنها سعيدة بصداقتي، كلمات دبلوماسية أفتقدها في كثير من الأحيان، كنت في غاية الحرج مما فعلته من همجية وتخلف قد أضاع الثقة بيننا، كانت ناضجة تعلم أنني لم أكن

أحبها ولكن حاولت أن أبرر ما فعلته بأنني أحبها، وفي تلك الأيام كنت لا أطيق التحدث مع أحد حتى نشبت معركة بيني وبين زميل لي في العمل لم يكن مخطئ ولكن أنا فقدت التعامل مع الأشياء، كنت في انتظار مكالمة منها حتى جاءت المكالمة، كانت تريد أن تراني وذهبت إليها. استقبلتني بحفاوة وجلسنا وتناولنا الشاي كانت منهمكة في العمل على اللاب توب، قلت لها هل أستطيع المساعدة؟

أغلقت الجهاز وقالت لي لقد انتهيت من العمل كنت فقط أبعث برسالة إلى "اليو إن".

ـ أنتِ تعملين في "اليو إن"؟! هكذا قلت مستغربًا.

ـ لا..أنا أحاول العمل هناك.

ـ ألستي مدرسة في المدرسة الإنجيليزية؟

ـ قالت لي بقناعة شديدة: عماد، أنا لست أهل علم..ليس لدي ما يؤهلني للوقوف في صدر فصل وأقوم بتعليم التلاميذ، هذا ليس تخصصي.

ـ ولكن أنتِ...

ـ نعم عملت في مدرسة من قبل ولكن تركتها على الفور، كانت خطوة سيئة.

ـ لماذ؟

ـ لقد ألحت عليّ صديقة بأن أعمل مدرسة، وقلت لها أنني لست مدرسة، قالت لي: ولكنك "بلوند" وهذا يمنحك كل شيء، مرتب ضخم، واهتمام كبير.

ـ عماد..التعليم في مصر في حاجة ماسة للمصداقية والشرف، عندما يتحول التعليم إلى تجارة يديرها رجال أعمال وليس رجال علم، فعليك أن تستعد لحصد الفشل والتخلف، أصحاب المدارس العملاقة يفعلون شيء عجيب يأتون "بالبلوند" ويضعوهم في الفصول وهم بالطبع يتحدثون الإنجليزية، ولكن لا يفقهون شيء ربما يكون منهم من كان يعمل في الزراعة أو بائع وأيضًا منهن من كانت "مومس" الهدف هو جذب التلاميذ فقط، يأتون أولياء الأمور فيجدون المدرسين "بلوند" فيثقون في المدرسة ويقبلون على دفع المصاريف الباهظة دون جدال. وأذكر أن كانت لي صديقة إنجليزية مثلي ولكن كان لها شعرًا أسودًا وعينان سودتان وغير ذلك "مسلمة" وكانت تعمل في لندن مدرسة وعندما قارنوا بيني وبينها فضلوني عليها؛ لأنها ليست "بلوند"، وهذا هو حال العالم الثالث الذي فقد الثقة في نفسه.

****

كل يوم كنت أتعلم شيئًا من "تريسي" تلك الفتاة العظيمة التي أبت أن تعلم التلاميذ ما لا تعلم، وأن تكون أداة للنصب والتزييف، كثيرًا ما كنت أمضي الليالي في التفكر فيها، وكنت حزين عندما أسأت الظن بها، أو محاولتي للنيل منها، كم كنت سعيد بهذه الصداقة التي تمنيت من أعماقي أن تستمر إلى الأبد. وفي ذات ليلة ضحكنا ضحك لم نضحكه من قبل، قالت لي أنها لم تتخلص هذا اليوم من المعاكسات. قلت لها وهل تشكين في ذلك؟ ابتسمت وقالت لي: لا أعرف كيف يفكر كثير من المصريين، واستطردت باستثناء أنت وكثير مثلك، ينظرون للبلوند على أنهن مومس ثم تناولت تليفونها الجوال وقالت لي قم بالاتصال بي، تعجبت ولم أعقب وفعلت، كانت الرنة عبارة عن جملة ترددها امرأة بصوت جهوري مع مزج موسيقي، كانت الجملة تقول "أنا مومس شقراء". "أنا مومس شقراء" لا شك بأن الحرج اجتاحني وأدركت أنها كانت تضحك ضحك مجروح، قالت إذا كانوا يرون أنني مومس فأنا أقول ذلك ولكن من يستطيع أن يأخذ شيء مني دون رغبتي..كانت الكلمات قاسية وشعرت أنها موجهة إليّ. لم أستطع الجلوس ونويت الرحيل.

****

استدعتني ذات يوم، وذهبت إليها، كنت أفكر كيف أنظر في عينيها الواعيتين الناضجتين التي تفضحني أمام نفسي، وكنت على وشك عدم الذهاب ولكن دفعني لها ما دفعني وذهبت، كانت كريمة في بيتها استقبلتني استقبال حار وجاءت بالغداء واحتسينا البيرة وتحدثنا قليلًا ثم قالت لي: عماد، لقد نويت الرحيل نهاية الأسبوع. لم أعي ما قالت، فأعادت عليّ القول مرة أخرى.

ـ كيف ذلك؟

ـ حاولت العمل ولكنني فشلت، وإقامتي في القاهرة لا داعي لها ما هي إلا تضييع للوقت، سأرحل وهذا ما توصلت إليه.

ـ كيف تيأسي وأنتِ...

ـ قاطعتني قائلة: إن الحياة تجارب وها أنا فشلت في تجربة ونجحت في الأخرى. لقد خرجت بصديق مثلك وهذا مكسب عظيم..فاقتربت مني واحتضنتني بشدة حتى تساقطت دموعها على كتفي وكل ذلك وأنا مبعد يدي أخشى شيء ما، ثم ضميتها إليّ وقد خلا عقلي أول مرة من الشهوة نحوها، وكنت على وشك البكاء. نزلت معها إلى صاحب العقار، رجل نحيل ومتطفل، وكثير ما كان ينبئه البواب بأنني أصعد إليها. استقبلنا في شقته وجاءت زوجته

وقدمت إلينا الشاي وتحدثنا عن قرب انتهاء العقد، لم يرفع الرجل عينيه من عليها بعد أن استغل غياب زوجته. فمال عليّ قائلًا: لو كان سبب مشيها من هنا إيجار الشقة، فأبلغها إني ممكن أستنى عليها شهر..إتنين..بس إنت إقنعها. ها قلت إيه؟ وكان الرجل يتلهف عليها، وكثيرًا ما أبلغتني بذلك وبتطفله المبالغ فيه، وأثناء جلوسنا لم يتوقف عن النظر إليها بعينين جريئتين، ثم أردف قائلًا: كلمها دغري الأجانب يحبوا الصراحة.

ـ أنا لو همجي والست دي ما تخصنيش كنت علمتك الأدب.

ـ تعلم مين الأدب يا حيوان.

ـ أنا حيوان. دا انت مش قليل الأدب وبس. كمان بجح.

ـ عماد، ماذا حدث؟! هكذا تدخلت "تريسي".

ـ لا شيء. ولكني أعتقد إنها فهمت كل شيء، تم فسخ العقد وأخذت مستحقاتها وانصرفنا.

كتبت إعلان صغير على صفحات الإنترنت تعرض متعلقاتها للبيع. اللاب توب، والطابعة، وعدة أشياء صغيرة وبعض الكتب وأيضًا ملابس، لم تقبل من أحد شيء، حاولت لكنها أبت بشدة،

فوق المائدة صفت الأشياء وكنت معها لأعاونها على البيع؛ كل شيء تم بيعه، وكان هناك رجل هو الذي اشترى اللاب توب، تقدم وبدأ يفحص النظارة التي ابتعناها من العتبة قال لي: بكام هذه النظارة؟

قلت له: بثلاث مائة جنيه.

هز رأسه مقتنعًا وكان على وشك شرائها، حتى قالت لي: "عماد" ماذا تفعل؟

قلت لها إنه "حمار" يريد نظارة بإثنى عشرجنيه..بثلاث مائة جنيه..ضحكت وقالت لي: لماذا؟ إنها لا تساوي وأنا أريدها للذكرى فقط.

ـ إنه مخدوع في النظارة يظن إنها قيمة؛ لأنها معكِ، "هكذا من أجل البلوند". ابتسمت وأخذتها مني وقالت له أنها لا تريد بيعها.

****

رحلت "تريسي" لكنها بقيت في حياتي، أصابني الحزن طويلًا، رغم أن صداقتنا لم تدم إلا شهرين وأسبوعان لكنها أثرت فيّ وتعلمت منها الكثير، ويمكن أبرز شيء تعلمته منها هي الشفافية والقوة والصدق. كما قالت لي أن الكذب فخ لا يقع فيه إلا صاحب الأكذوبة، حاولت

جاهدًا أن أكون إنسانًا صادقًا ولكني فشلت... إن البيئة التي نشأت وتربت فيها غير بيئتي، إنني أحيا في مجتمع فاسد وفاشل، مجتمع يحيا على الكذب، والنفاق يحيطه من كل الجوانب، لا أنسى عندما عدنا من العتبة حيث قالت لي: أحيانًا الزحام والضوضاء يدفعون الإنسان لفعل أشياء غريبة وهذا ما حدث مع المصريين، وقتها قلت لها إننا بلد من العالم الثالث ينقصه الكثير. ضحكت وقالت لي: لا بد أن تكون الحكومة على قدر كبير من الشفافية وأن تطلع الشعب على كل شيء اقتصاديًا وعسكريًا وسياسيًا، بالضبط مثل الأب إذا اصطحب أبنائه معه في رحلة وأخذ يعبر بهم الطرق دون أن يوعيهم من السيارات وخطورتها، وجاء يوم وخرجوا دون الأب ماذا سيحدث من المؤكد أن سيارة ما ستصدمهم؛ لأنهم لم يأخذوا الحذر منها من قبل.

قلت لها وهذا ما تتمناه حكومتنا أن نمت جميعًا.

ـ الطاقة كلها لدى الشعوب..والحكومات ما هم إلا أناس من الشعوب، فإذا تم إلغاء تلك الطاقة والزج بها في النار فاعلم أن الدولة قد ماتت، كفى استخفاف بعقول الناس وكفى شعارات وكلمات بطيئة وعقيمة، بعد كل ذلك شعرت بأنني مذبذب ثمة أمواج عاتية تتضارب في نفسي، لكنني في النهاية عدت إلى ما كنت

عليه، ألهث وراء كل فتاة بلوند بنفس المشاعر التي دفعتني في بادئ الأمر بـ "تريسي" هذا كل ما أستطيع أن أفعله.

****

٤. د/ سميرة

عندما كانت تتاح لي مشاهدة النقود المصرية مثل الجنيه وأطيل التأمل فيه والتدقيق كنت أشعر بالفقر والكآبة، شكل الجنيه فقير تراه تُشفق عليه، تجده كئيب تعيس قذر ليس له قيمة، لونه ورسوماته والاتساخ الذي يحمله، وكأنني كنت أرى هذا البلد من وراء هذه العملة، فكيف بعملة بهذه القيمة والشكل بأن تكون في بلد نظيف وراق ومتطور، لا بد من أن الشعب يشبه عملته، فمثلًا عندما تشاهد الدولار أو الين الياباني أو الإسترليني تجدها عُملات قوية نظيفة حتى حينما تحمل منها ورقات تشعر بأن معك نقود. في الآونة الأخيرة ومنذ مطلع الألفية بدأت أمريكا تصدر لنا رعاياها من البلطجية والسكارى والشواذ والمتخلفين، وكنت أتابع ذلك جيدًا ففي منتصف التسعينات كان الأمريكان والأوروبيين يمتازون بأشياء جميلة وحدود وثقافة وفهم، لكن ما يحدث الآن مختلف تمامًا.

****

في يوم من تلك الأيام الملعونة كنت أقف عند "كنتاكي"، وكان هناك مجموعة من الأطفال المتسولين يمسحون السيارات ويشحذون من المارة الأجانب..وخرج من المطعم رجل أمريكي ضخم وتقدم ناحية سيارته ولحق به طفل وبدأ في مسح السيارة مع ترديد بعض الكلمات الإنجليزية مثل "اعطني البقشيش مستر" وهكذا، فنزل هذا الضخم ومسك الولد من عنقه وتحدث معه بغلاظة ثم ركله فسقط الولد على الأرض وهو يصرخ؛ وركب سيارته وفر بها وكاد أن يدهسه، تحدث الناس الذين أحاطوا الولد وبدأوا يحللون الموقف. من قال أنه سكران أو أن الولد حاول سرقته، وفي النهاية تقدم رجل ونظر للولد باشمئزاز وأخرج هاتفه وقام بالاتصال بالشرطة التي جاءت وأخذت الولد، وقال الرجل بصوت أجش: (دول اللي خربوا السياحة). كنت أمضي في تلك الضاحية التي يسكنها الأجانب بكثرة وكنت أجد أشياء عجيبة، منها كانت حادثة سيارة بين بلوند وسائق تاكسي. السيارة الجيب دهست التاكسي وحطمته وخرج السائق محمول على الأيدي ثم إلى الرصيف، وقفت حركة المرور لبضع دقائق ثم تقدم أحد المصريين إلى السائق وقال له: أنا هحاول أجيبلك منه قرشين وتروح لعيالك، ده خواجة يعني لو رحت القسم مش هتطول لا أبيض ولا إسود. ذهب إليه وأخذ منه بضع ورقات دسها

في يد السائق ثم انطلق الأمريكى وقذفنا بضحكة تملأها السخرية.. وجاءت سيارة الإسعاف وحملت ذلك المسكين، أعرف تمامًا أن السبب هنا ليس الأمريكي، وإنما المصري الذي تدخل وسمح له بالفرار ولكن لو كان انتظر حتى تأتي الشرطة كان السائق المصري أخذ حقه؟!

كنت أتجول في ذات يوم ورأيت رجل بلوند وقد دس في كمر البنطلون "خنجرًا" وهكذا تغير شكل البلوند وبدأوا يصدرون إلينا بلطجية وكأننا ندخل معهم يوميًا في حرب شوارع.

****

البحث عن خطيئة من أسهل ما يمكن، عليك فقط أن تنسى الله وتتبع خطوات الشيطان وهذا ما فعلته بالضبط، ولذا كنت في كل مرة أتعرف بامرأة بلوند تجمعني بها بضعة أيام يستمتع كلانا بالآخر ثم تنتهي العلاقة، وقليل ما كنت أصادف واحدة أتعلم منها شيء، فأكثر النساء لا يعنيهن إلا ممارسة الجنس، وكنت محظوظ في الحصول عليهن، لكن الحلم ما زال بعيد، كل ما كنت أرجوه هو الهجرة والبعد عن مصر، وكلما أترقب عمري الذي يمضي بسرعة مخيفة أشعر بالكآبة، لقد أتممت عامي الثلاثين، وانتهت فترة العشرينات، وبدأ

عقد آخر لا بد من الوقوف فيه على أرض صلبة.

****

منذ طفولتي وتكونت علاقتي وحبي للبلوند عندما كنت أشاهد "د/ سميرة" تلك الأمريكية التي كانت تدرس لنا الدين في المسجد، حيث كانت تأتي هي وابنها "عز الدين" وكان صغير مثلنا، كنت أجلس بالقرب منها وأظل أنظر إليها فقط، كانت تشرح بطريقة لا مثيل لها، وكانت تتحدث اللغة العربية بطريقة ركيكة، ولكن كانت تخرج منها سلسة ومفهومة، بالطبع في تلك السنوات كنت لا أعي شيئًا عن الديانات، ولكن بعد أن نضجت كنت أتعجب من تلك المرأة التي جاءت من أقصى البلاد لتعلمنا مبادئ الدين، والحقيقة أنها جاءت بصحبة زوجها المصري "د/ فاروق"، كنت أعشق الذهاب معها إلى البيت حيث تتركنا أنا، و"عز الدين" لنلعب بالدراجة في حديقة منزلها، وبالمناسبة تعلمت اللغة الإنجليزية منها وبعد اللعب تطعمنا ثم تأخذني في سيارتها "الفلوكس" وتذهب بي إلى بيتي وتجلس بعض الوقت مع أمي وإخوتي وكانت تعشق اللهجة الريفية التي تتحدث بها أمي، غير أن الجيران يعرفون من هي "د/ سميره"، لأنها كانت تحمل أدوية كثيرة تصرفها للفقراء بالمجان كانت لها شعبية

في محيط بيتي، كنت أعشق يوم الإثنين والخميس لمشاهدتها والجلوس معها رغم أنني لم أتعلم منها شيء، لكنني كنت أشعر بالسعادة وأنا معها، أذكر عندما جاء عيد الأم وذهبت وآخرين نحمل هدايا لها وماذا فعلت..أجلستنا من حولها وقالت كلمات رقيقة أذكر منها "أن من الواجب في هذا اليوم هو الذهاب إلى دور الأيتام" لنقضي معهم اليوم وكان بعضنا يتساءل، لماذا دار الأيتام بالذات؟! أليس هذا عيد ومن الأولى الذهاب إلى الحدائق؟ كانت تقول: هناك أطفال ينتظرون هذا اليوم لنذهب إليهم؛ وبالفعل ذهبنا وقضينا وقت جميل وبعد ذلك كانت تنظم لنا رحلات من هذا النوع بجانب رحلات أخرى. وكانت تقص علينا قصة اعتناقها الإسلام حيث أنها اعتنقته قبل أن تلتقي بزوجها، عندما بحثت عن أسئلة كثيرة لم تجدها إلا في الإسلام، وعندما التقت بزوجها عشقته؛ لأنه متدين وعلى خلق، وكانت تقول أنها بدأت تدرس الدين هنا في مصر بعد أن وجدت كثير من المسلمين بعيدين عن الإسلام الفعلي، ولذلك قررت تعليم الأطفال، ولكن الذي كان يضايقني منها هو حديثها عن مصر كانت تتحدث عنها وكأنها قطعة من الجنة، أجل! فهي تراها من وراء جنسيتها، وكنت أتعجب كيف تركت أمريكا لتعيش في هذا البلد، وزوجها لماذا عاد؟! هل من أجل علاج هؤلاء المفكوكين؟! إن ما

فعله لا أظنه عمل بطولي، ولكن إمكانياته هي التي دفعته لذلك فلو كان يصلح لعلاج الأمريكان ما كانت تخلت عنه أمريكا.

****

فكرت في الذهاب إليها، ولكنني تساءلت، هل ما زالت في مصر؟! وهل تقطن في فيلتها القديمة؟! وما أخبار زوجها، و"عز الدين" الذي أصبح في سني الآن؟ هل تستطيع التعرف عليّ؟ إنها سنوات كثيرة لم أشاهدها، ولا أعرف عنها شيء. وعزمت على الذهاب إلى بيتها في عطلة نهاية الأسبوع، حيث كانت تقضي نصفها في المسجد والآخر في حديقة المنزل تقرأ، أما يوم السبت فكانت تخرج بصحبة الأولاد في نزهة، ذهبت إليها وكنت مضطربًا، وكلما اقتربت من البيت أشعر بالخوف والقلق. من الوارد أن تكون رحلت أو نسيتني، ولما وصلت إلى البيت ودفعت الباب الخارجي شاهدتها جالسة على مقعدها في الحديقة كما تعودت، توترت بعض الشيء، لقد بدت نحيفة للغاية لكنني تقدمت ناحيتها وهمست بحذر: د/ سميرة؟

التفَّت إليّ وبحلقت في وجهي طويلًا.

لقد تغيرت كثيرًا برزت عظام الوجه وغطست عيناها حتى أصبحت ثقبتين ضيقتين وتدلت على أنفها نظارة طبية. إنت مين؟

هكذا همست.

ـ أنا عماد يا دكتورة؛ عماد خليل الطيب.

انتظرت قليلًا، ورفعت عيناها في وجهي وأطالت التدقيق.

ما شاء الله! أنت عماد، معقول! ثم تهلل وجهها بالسعادة واستطردت: لقد أصبحت رجلًا، كيف حالك؟

لم أتخيل أن لديها ذاكرة من حديد، تذكرتني دون أن ترهق نفسها وترهقني. قامت من مقعدها واقتربت تمحلق فيّ بعينين سعيدتين.

قلت لها: لقد تغيرتي كثيرًا يا دكتورة.

وأنت يا عماد: لقد أصبحت رجل وسيم.

ضحكت رغمًا عن نفسي، ولكني كنت حزين لما طرأ عليها من شيخوخة مبكرة فكان يوحي مظهرها بامرأة في الثمانين، بينما هي كانت في الخمسنيات، تذكرت "عز الدين" ابنها وسارعت في السؤال عنه أين "عز الدين"؟

لقد أصبح رجلًا مثلك وتزوج منذ عام، وها هو ذهب إلى الخليج للعمل في النفط.

ـ مِن مَن تزوج؟

ـ من فتاة أمر يكية تدعى "جودي" تقيم هنا معي.

ـ أين هي؟

ـ خرجت منذ ساعة لتبتاع بعض الأشياء من السوق.

ـ هذا رائع، أنا سعيد لأنكِ بخير. طفولتي كلها قضيتها هنا في بيتك.

ضحكت من قلبها ضحكة رقيقة صافية، كثيرًا ما أفتقدها.

فقالت لي: وأنت ما أخبارك؟

ـ لا شيء.

ـ كيف ذلك؟

ـ أنت تعرفين مصر أكثر مني. تعلمت وحصلت على شهادة ثم تسولت عند مصاصي الدماء بضع سنوات والآن لا أعمل.

ـ أنت ذكي يا عماد وأذكر أنك كنت بارع في أشياء كثيرة، لا تدع اليأس يحطمك ويتملك منك؛ «نفس الكلمات الغير عملية، الكلمات التي تستقر في حلق المسئولين المصريين ليطلقوها في وجوه الشباب، لكن الواقع يجهله الكثيرين وأولهم أنتِ..نعم أنتِ، التي بعثتي ابنك ليعمل في النفط، فكيف تشعرين بواحد مثلي محطم» جاوبتها ببرود:

مواهبي كثيرة، ولكن أدخرها إلى وقت ما.

ـ لا تضيع وقتك يا عماد.. وابدأ من الآن.

أبدأ من الآن، وكأن الآن منتظرني، بل يبحث عني، ولم أشعر به سوى معها، يا لها من سخرية، أتظنني مثلها أمريكي، أو لديّ نفوذ، ما أبسط النصائح والإرشادات من الجالسين في المدرجات، ما أسهل الحديث عن الواقع من خلف لوح زجاج، وفرت أي نقد لها وسرعان ما تحدثت عن الماضي وعن دروس الدين حتى نويت الإنصراف. وقبل أن أذهب قالت لي:

ـ لا بد أن تنتظر معي، أنا في حاجة للحديث إليك ما رأيك أن تتناول معنا الغداء؟ واستطردت ألم تفتقد طعامي بعد، هكذا قالت بروح مصرية.

وسرعان ما تذكرت زوجها ثم سألت عنه.

قالت لي: توفي يا عماد منذ عدة أشهر، فبدا وجهها شاحب حزين.

ـ هذا قضاء الله يا دكتورة، ثم ضمتها إليّ وقبلت رأسها، لكن الدموع كانت أسرع لتملأ الوجه الذي باتت عليه علامات الحزن، كنت في حالة ذهول وأنا أشاهدها تجفف دموعها بيديها الصغيرتين

لتزفر دموعًا أكثر. يا الله! ما أصعب هذا الموقف عليّ، حاولت أن أتذكر آيات من القرآن لكني فشلت، كل ما فعلته هو تقبيل رأسها فقط لتتوقف بعد ذلك الدموع وتحل مكانها ابتسامة خفيفة جعلتني أشعر بأنني فعلت شيء..

ثم قلت لها: كلنا أموات يا دكتورة، الإنسان يأتي إلى الدنيا ليرحل بعد ذلك، ما فائدة الحياة إذن؟ أبسط شيء هو الموت، من الممكن أن يموت الإنسان وهو نائم..أو وهو يأكل عندما تقف في حلقه قطعة خبز فتقضي عليه..أو حين يسير فتسقط فوق رأسه شجرة أو تدهسه سيارة..الإنسان تافه ضعيف لا يستطيع دفع الموت عنه..وطالما نحن كذلك فلماذا نقهر بعضنا البعض؟ كلمات خرجت من أعماقي وكنت أشعر أنني أوجهها لنفسي وليس لها.

ـ عماد، ما كل هذا اليأس الذي يملأك؟

ـ نحن في بلد لا تؤمن بأمثالي، بلد ليست بلدنا. أحيانًا أشعر أنني في غربة وكل ما يحيط بي عدو، بلد تؤمن بالفساد فقط..

ـ لماذا كل هذا اليأس يا عماد؟! ألست مؤمنًا؟!

ـ الإيمان يا دكتورة لم يفعل شيء. هل أيقظ الضمائر؟..رق القلوب؟..جعل للموت خشية؟..ذكر الناس بالله؟

ـ كل واحد مسئول عن نفسه، إيمانك إن لم يستفد منه الغير، فيكفي أنه أفادك أنت.

ـ وكيف أكون مؤمنًا في بلد تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض.

ـ ما الذي أصابك؟! كنت طفل ذكي، طموح، تذهب إلى المسجد تصلي، وتعشق مجالس العلم، ما الذي حدث؟..حقًا كنت أذهب إلى المسجد، ولكن ليس للصلاة، ولكن للعب ومشاهدة «عز الدين» وأخذ الدراجة منه، لم أحفظ كلمة واحدة من القرآن، كان المسجد بالنسبة إليّ فسحة لا أكثر من ذلك. هكذا كنت أحدث نفسي ثم قلت لها:

ـ بعض الأشياء لا تدوم واستأنفت..ماذا عن دروس الدين..هل فعلت شيء جديد؟

ـ أمل الإسلام في الأجيال القادمة، ووحدي لن أفعل شيء، لا بد من رجال المال أن يتعاونوا معي..هكذا كانت تتحدث بإحباط..

ـ دكتورة..ماذا حدث؟

ـ المصريين يا عماد بيحبوا الدين لكن مش متدينين.

ـ كيف؟

ـ تجد أن غالبية المسلمين أميون..هذا في مصر.

ـ هذا طبيعي ألسنا بلد فقير..لقمة العيش والسعي لها..أفضل عند المصريين من التعلم..

ـ إن غالبية المصريين لم يستطيعوا القراءة..وذات يوم سألت سيدة كبيرة تجاوزت الأربعون عامًا هل أنتِ تحبين الرسول (محمد ﷺ)؟ صاحت في وجهي وقالت بعنف: هل عندك شك في ذلك.. قلت لها: حسنًا!..لماذا لم تسمعي نصائحه وتعملي بها؟..قالت: إنني أصلي وأتبع الإسلام..قلت لها: لكنه قال طلب العلم فريضة..وأنتِ تجاهلتي هذا القول، ولم تطلبي العلم. تلون وجهها بحمرة الخجل، ونظرت أسفل قدميها..ثم قلت لها: اللي بيحب حد بيسمع كلامه....

علت مني ضحكة، وقلت لها ما زلتِ أمريكية يا دكتورة لم تتعرفي بعد على عقول المصريين..

ـ لا بأس، هناك أمل لكن لا بد من التوافق للخروج من المأزق، ولا بد أن تعود إلى ما كنت عليه، تذهب إلى المسجد وتحضر دروس الدين.

ـ إذا كان على يدك فأنا على استعداد من الآن.

ـ عماد، لا أستطيع إعطاء الدروس مثلما كنت، ثم إن هناك شيخ يدعى "فضل" هو يهتم بذلك، إنني أذهب يوم الجمعة فقط أعطي

الدرس للأطفال..وقبل أن أتحدث شممت رائحة هبت من خلفي فنظرت فإذا بفتاة بلوند لم أشاهد مثلها في جمال وجهها وجسدها. حقًّا كان جمالها مستفز، تقدمت نحونا وعلى وجهها ابتسامة كبيرة، وكانت تحمل في يديها أكياس بلاستك، تعرفت عليها وأيضًا تفحصتها، عينان عسليتان تلمعان وشعر ذهبي مسترسل فوق كتفيها العاريين ونهدين ما زالا في مرحلة البلوغ، مدت يدها وصافحتني قلت للدكتورة: زوجة "عز الدين"..

ـ نعم، هذه هي "جودي".

قالت لها الدكتورة: هذا "عماد الدين" صديق "عز الدين"، لهم طفولة مشتركة..

هزت الفتاة رأسها في تودد واستأذنت في أدب وتركتنا. لم أسمع من قبل أن أحدًا ناداني بعماد الدين، شعرت أنه ليس اسمي، لا أعرف لماذا؟ قبل أن أشاهد "جودي" كنت هأقلع عن فكرة الذهاب إلى المسجد ولكن بعد أن رأيتها عزمت على الذهاب إلى المسجد، تركتها وذهبت، ولكن لم تذهب صورة "جودي" فكرت فيها كثيرًا وتعديت عليها في أحلامي ضاربًا بعلاقتي بالدكتورة و"عز الدين" عرض الحائط، وبدأت من جديد الذهاب إلى المسجد، كان لا بد من ذلك؛

فأنا لا أستطيع الكذب عليها؛ فهي تعرف هذا الداعية جيدًا وأيضًا لا أعرف شيء عن الدين، لا بد من حصولي على بعض المعلومات، ولا بد من حفاظ قصارى الصور وجانب من الأحاديث؛ لأثبت لها أنني مؤمن.

****

ما زال المسجد هو هو، محتفظ بنفس الرائحة، رائحة الجوارب العفنة، ما زلت أتذكر أركانه، في هذا الركن كانت جلستي حيث أسند ظهري على العمود فلا يراني أحدًا، ولا يجبرني أحدًا على القراءة، ثم يأتي بعد ذلك الفصل الثاني من الدرس وهو فصل تمثيلي حيث ننتقل إلى ركن آخر في المسجد مكشوف للسماء ويطل على حديقة متسعة، ثم نقوم بتمثيل المسرحية، كنت أول من يقفز لهذا الفصل، وفي ذات يوم لم أنساه أبدًا، تغيبت الدكتورة وكان لا بد أن نجري بروفة على المسرحية، وجاء شيخ وتطوع للإشراف على النص حيث كانت المسرحية عن الخليفة "هارون الرشيد"، كان يدعى "حسين يعقوب"، ارتدينا الملابس واستعد كل منا لدوره وكنت أقوم بدور "الخليفة"حيث سيأتي إليّ أحد الفقراء ويعرض مشكلته، وكان يمثل الدور صديق لي، له وجه مثير للشفقة أدى الدور ببراعة

شديدة لدرجة استفزتني ودفعتني لضربه بطريقة هيستيرية مع سبه ومطاردته في المسجد كله، وكان يستغيث، لأنتبه على ضرب شديد من هذا الرجل بعد أن نزع حزام بنطلونه وهوى به عليّ ودفعي خارج المسجد وحرمني من التمثيل في المسرحية.

****

هذا هو المسجد بالزخرفة الإسلامية التي تزين جدرانه والمنبر الأرابيسكي العتيق الذي يرجع إلى بداية القرن التاسع عشر، ونوافذه المثلثة، ومكتباته الضخمة التي تحوي مئات من التراث الديني، كذلك ما زال على طبيعته كما تركته. أديت صلاة الظهر ثم التقيت بالإمام وعرفته عليّ وذكرت له الدكتورة وقصيت عليه أكاذيب كثيرة كان يتعجب منها برفع حاجبيه منبهرًا. قلت له:أنني كنت مسئول عن رفع الأذان، وكان عمري حينذاك سبع سنوات وكان صوتي يأتي بالناس ليشاهدوني، ابتسم الإمام في سعادة وقال لي: شوقتني عايز أسمعك.

ـ مش ممكن، صوتي خلاص راح، زي ما أنت عارف التدخين ضيعني.

ـ أتمنى إنك تتوقف عن التدخين.

ـ إن شاء الله.

ـ وبإذن الله ستعود أفضل من الأول.

ـ البركة فيك..

وحضرت أول درس، جلست بين أطفال صغار..انطلقوا في القراءة، بينما كنت صامتًا، حاول الإمام أن يجذبني للقراءة لكني أبيت بشدة قلت له إني مستمتع بسماع هؤلاء الأطفال، وبدأت أشعر بالحرج من جلوسي بين هؤلاء، كان الأطفال ينظرون إليّ ويضحكون بين أنفسهم، وكنت أنظر إلى الساعة الضخمة المثبتة في الحائط المواجه لي حيث كنت أجلس في اتجاه القبلة، كأن العقارب أقسمت أن لا تتحرك وكنت أشعر بأن هذا نوع من العذاب..نعم كنت لا أعشق هذه الجلسات، يعني أدخل المسجد وأخرج بسيئات..كان شيء مؤلم، لم أستطع التغلب عليه، لم أستطع دفع نفسي لهذا الطريق، كل ما كان يجول برأسي هي "جودي" فقط.

****

أهلاً عماد بني، هكذا استقبلتني الدكتورة في ثاني زيارة إليها.

ـ أتمنى أن تكوني بخير.

ـ الحمد لله لكن أنت ماذا فعلت؟

ـ كل خير.

ـ عال، نبرتك تغيرت ويبدو أنك سعيد.

ـ لا داعي للقلق والخوف من الدنيا..أليست فانية؟!

ـ أنت تسعدني بكلامك.

ـ أجمل شيء في الدنيا هو الإيمان، واتباع منهج الله.

ـ عماد، أنت تحسنت كثيرًا، أنت رائع.

ـ دكتورة، لا بد أن نتعامل مع الله بذكاء وطاعة وحب.

ـ لا لا، لا بد من جلسة طويلة؛ لأستمتع بهذا الكلام، هيا بنا نتناول الغداء أولًا ثم نأخذ الشاي في الحديقة ونتحدث، زوجة ابني طاهية من العيار الثقيل مثل حماتها، دخلت ورائها وكان باب الفيلا مفتوحًا؛ في الواجهة صالة كبيرة بها عدد قليل من المقاعد وعلى اليسار السلم الخشبي المؤدي إلى غرف النوم، وردهة صغيرة بها عدة أبواب، باب يفتح على المطبخ حيث تقدمت الدكتورة ناحيتة وصاحت: لدينا ضيف..وعلى الحوائط صور عائلية للدكتورة وزوجها وصور لها وهي في أمريكا، وصور لـ «عز الدين» وهو شاب، لقد أصبح وسيم

للغاية، أخذ كل ملامح أمه، وصور قرآنية في براويز مذهبة، كانت الدكتورة تتبعني قالت لي: عرفت عز الدين؟

ـ نعم، لم يتغير كثير.

ـ لكنه أصبح رجل مثلك وتغيرت ملامحه.

ـ ومن قال أني عرفته من ملامحه، أنا تعرفت عليه بروحي.

ـ حقًّا! إنه أخوك.

أجل أخي، هكذا غمغمت وهمست بيني وبين نفسي بحقد.. ولكن كيف يكون أخي؟ إنه أخذ كل شيء، كرامة البلوند في العالم كله، وأيضًا الإسلام والزواج من فتاة لا مثيل لها حتى وإن كانت «كاثوليكية» فما المانع؟..الإسلام يسمح بذلك، وتوظف في النفط. ما الذي ينقصه هذا اللعين، إنه امتلك كل شيء، لمحت امرأة تصف الأطباق فوق السفرة ومن ملامحها أدركت أنها مصرية كانت سمراء ولها وجه كبير قسماته غليظة وجسدها سمين. كانت كئيبة تنظر إليّ وكأنها تعرف نواياي، حاولت أن أبتسم في وجهها؛ لكنها كانت حادة، تعاملت معها حيث تقدمت وأخذت منها الأطباق، لكنها عاملتني بجفاء.

قلت للدكتورة: من تلك المرأة؟

قالت: أم إدريس، إنها تعاونها على الطهي ونظافة البيت.

وظهرت بعد ذلك «جودي» تحمل ما تبقى من أطباق صافحتني وابتسمت في وجهي وجلسنا، كنت بجوار الدكتورة، وهي بجوار «جودي» رغم إن «جودي» كانت في مواجهتي؛ لكني لم أستطع رفع عيني فيها وتلك المرأة بجوارها تتربص بي، الطعام لذيذ والجو منعش، ولكن أفسدت كل شيء تلك المرأة اللعينة، وعزمت على الرحيل.

ـ عماد، أنت لم تتناول غدائك.

ـ الحمد لله، إنني أكلت ما فيه الكفاية.

ـ كيف ذلك؟

ـ موعد هام، وسأعود لاحقًا، وانصرفت على وجه السرعة وكأنني أركض من حيوان شرس على وشك أن يلحق بي، تعلمت الحديث عن الدين كما لو أني قديس، ولكن لم أشعر بما أقوله، يبدو الحديث معي وكأني ورع، ولكن العكس صحيح، لماذا شعرت بالضيق من تلك المرأة ذات الملامح الحادة التي لم تتوقف عن النظر إليّ؟

لا أعرف، لكن شعورًا بالخوف انتابني حينذاك..وصلت إلى

البيت، تفقدت الجو الكئيب، حيث تجلس أمي في ملابسها السوداء تنظر في اللاشيء، وأبي ما زال قابعًا في فراشه، صوت «الشيخ المنشاوي» يصدح في البيت بآيات وعيد وجحيم، دقات قلبي ما زالت تتوالى بسرعة، نظرت إليّ أمي بكآبة، وسرعان ما عادت تنظر في اتجاه آخر، دفعت باب غرفة أبي وجدته غارق في نوم عميق، نظرت إلى الراديو الذي يحتل مكان صغير فوق رف في المطبخ، حيث صوت «المنشاوي» ظل يدوي في البيت، مما جعلني أتقدم لإطفائه، وكأنني أتخلص من عذاب شديد، نظرت إليّ أمي وهزت رأسها أسفًا، فدخلت حجرتي وتقدمت ناحية المرآة لأعيد ترتيب ملابسي وتصفيف شعري، ثم فوجئت بها أمامي في المرآة صورتها المخيفة تحل بدلًا من صورتي «أم إدريس» ملامحها المخيفة..صمتها..عيناها التي أشبه بجمرتين، هكذا رأيت وتسمرت في ذهول، لم أكن أحلم، كان واقع مخيف، ما شاهدته كان يعكس ما بداخلي من شر وحقد، كم هائل من السواد، ذهبت في مساء اليوم إلى بار «سان مارينو» تناولت زجاجة بيرة ثم كأس «جوني ووكر» وبدأت شلالات من الأسئلة تهاجمني، لم أكن أعرف أنني ملفت للنظر، ولماذا توترت؟ وهل تعرفني تلك المرأة؟ غادرت البار، وفي الخارج لفحني الهواء البارد فمضيت على قدمي مترنحًا، لحقت بي فتاة أفريقية كانت تعرفني من قبل، قالت لي أريد مصاحبتك هذه

الليلة. بالطبع رحبت بها وأخذتني إلى بيتها وقضيت ليلة طويلة بين مضاجعتها وأنا أتخيل «جودي» فيها وبين تجرع الويسكي المغشوش، أنهيت زجاجة كاملة، وشعرت بأن جسدي ينتفض، لكن سرعان ما ذهبت وأخذت دوشًا باردًا. أيقظتني في الثانية من مساء اليوم التالي وهي تصرخ: «عماد»، «جاكلين» ماتت، نظرت لها بصعوبة حيث ما زلتُ تحت تأثير الخمرة، استأنفت بنفس النبرة المخيفة، وكانت تتنقل في الغرفة وكأنها تبحث عن شيء هام: ماتت «بالإيدز» يا عماد..أنت كان لك علاقه بيها؟..إتكلم..

ذهبت إلى البيت وكنت في حاجة للراحة النفسية والبدنية، حاولت التخلص من صورة «جودي» لكن لم أستطع ورأيت أنني لا بد أن أذهب إلى بيت الدكتورة. قمت بحلق ذقني والاستحمام، وارتداء ملابس جديدة ثم ذهبت، كان الجو مائل للحرارة شعرت بذلك بعد أن قررت الذهاب على قدمي لأمنح نفسي قدر من التفكير، اقتربت من الفيلا شعرت بارتياح غريب ودنوت من الباب الخارجي ونظرت إلى الحديقة فوجدت «جودي» فوق الشيزلونج وجسدها لامعًا كالشمس وبين يدها كتيب صغير وفوق عينيها نظارة شمس كبيرة، حيث كانت ترتدي شورت شفاف وقطعة أخرى فوق ثديها، فور مشاهدتي وقفت وتقدمت نحوي ومدت يدها وصافحتني

وأذنت لي بالجلوس، قالت لي: إنها تأخذ حمام شمس.

قلت لها: الحرارة شديدة.

قالت: أعرف ذلك وأضع كريم على بشرتي ليحفظها.

ـ لكن بشرتك رائعة، ولاداعي لحمام شمس.

ـ هذه عادة أحرص عليها.

ـ أنت تمتلكين جسد رائع وبشرة رائعة.

ـ أعلم ذلك جيدًا، ولكن هي محاولة للحفاظ على بشرتي.

هذه ثقة تغريني وتدفعني للكثير من الأسئلة والأحاديث..

واستأنفت قائلة: أنا كنت أفضل بكثير مما تراه لدرجة دفعت شركات الإعلانات بالاستعانة بي في الترويج لبعض المنتجات، وأيضًا مجلة «هاللو» أخذت لي صورة ووضعتها على الغلاف وأنا أرتدي المايوه.

ـ اصتنعت الدهشة وقلت لها حقًّا!

ابتسمت، وبدا عليها الثقة والسعادة، ثم قالت الدكتورة خرجت مع الأولاد، ثم قامت مستأذنة لارتداء ملابسها، تحركت من أمامي

برشاقة، ثم عادت بعد دقائق معتذرة عن التأخير، ولما جلست بجوراي بدأت تتحدث دون توقف وكأنها لم تتحدث من قبل وهذا أسعدني جدًا؛ لأنه يدل على أنها اطمئنت إليّ، وأدركت من حديثها أنها فتاة عاطفية تعشق الرومانسية، وبدأت أضغط على هذا الذر، وقصيت عليها قصة لم أعرف كيف ألفتها في بضع ثوان، قلت لها إنني إنسان تعيس جدًا وتعاستي أنني لم أستطع النسيان كما يحدث مع الكثيرين، لقد أحببت فتاة لبضع سنوات وافتقدتها في أقل من دقيقة، تأثرت وبدا عليها الحزن ثم استأنفت قصتي مبالغًا في الحزن: لقد ماتت بعد معركة مع مرض السرطان..وهنا أجهشت في البكاء وصرخت: أوه عماد..يا الله..ثم قامت لتحتضني بشدة وهي تدفع بكلمات التعزية في أذني، ثم جلست ملتصقة بي حيث ربتت على ظهري برقة وهي تتابعني بعينان صادقتان، حيث بالغت في التمثيل بشدة ، أحرجني تعاطفها فتوقفت ثم قالت لي: آسفة إذا كنت ذكرتك بها، وجاءت الدكتورة، وشعرت بأن «جودي» تضايقت قامت على الفور وبادرتها قائلة: عماد جاء منذ دقيقة واحدة ثم أرسلت إليّ غمضة من عينها، فأدركت أن الدكتورة تفرض على البيت نمط الحياة الشرقية، وأسعدني هذا السر الذي جمعني بها، وأن الطريق بدأ يتمهد أمامي، ومن حُسن الحظ أن تلك المرأة التي تدعى «أم إدريس» تأخذ

إجازة يومي الجمعة والسبت، جلست مع الدكتورة نصف ساعة، ولكن شعرت بأن «جودي» تضايقت من وجود الدكتورة، وبدأت تهتم بي جلست جواري بعد أن جاءت إليّ بالشاي وقطعة الكيك غير إنها لم ترفع عينها من عليّ، ثم انصرفت.

****

دائمًا تهاجمني الكوابيس، وأشعر أنني أقاوم الموت كل ليلة، شيء ثقيل يهبط فوق صدري ويظل يخنقني ولا أستطيع التخلص منه سوى بالاستيقاظ مفزوعًا..النوم متقطع مما سبب لي ارتفاع في الضغط والإرهاق الشديدين..رأسي مثقلة بهموم الغد، الأيام لا تحمل أية بشرى، فكرة الموت تقتلني، وكلما أتذكر أنني ميت ميت، يُشاع الخوف في نفسي، تعيس الحظ لدرجة مؤلمة، مصاحبة الفتيات العاهرات هي الشيء الوحيد الذي يمنحني سعادة ولي حظ فيه مما جعل الآخرين يحسدونني، التحدث مع شخص أثق فيه ويثق فيّ حيث التحدث معه بشفافية دون بروزة الكلمات والتكلف هذا يسعدني رغم أني أفتقد هذا الشخص..

في تلك الأيام كنت لا أعمل، أدخر بعض النقود التي أنفق بها على نفسي، ورتبت أمري وعزمت على الذهاب إلى بيت الدكتورة

في نهاية الأسبوع، ولما أشرق يوم الجمعة استعديت للصلاة وذهبت إلى المسجد وأدينا صلاة الجمعة وبحثت عن الدكتورة فوجدتها، صافحتني بحرارة وكانت سعيدة لرؤيتي قالت لي: إنها بعد قليل ستجتمع بالأولاد حيث تلقي لهم الدرس، قلت لها وأنا أيضًا على موعد مع الشيخ «فضل».

ـ بالتوفيق يا بني..هكذا قالت بنبرة الأم التي تودع ابنها عند الخروج من المنزل.

جلست مضطرًا إلى أن استأذنت إلى دورة المياه، ومن المسجد إلى بيت الدكتورة. كل شيء على ما يرام «الدكتورة» في المسجد و«أم إدريس» في إجازة و«جودي» في البيت بمفردها، هذه فرصة ربما لم تأتي مرة أخرى، إنني أشعر بأنها تنتظرني، وصلت إلى هناك ودلفت من الباب الخارجي وكانت تجلس في الحديقة تتناول الشاي، لمحت في عينيها سعادة شديدة لرؤيتي جلست معها وبدأنا نتحدث، شعرت بأنها ليست سعيدة في حياتها فبادرتها قائلًا: أشعر بأن هناك شيئًا ما يضايقك.

رمقتني مستطلعة، فقلت: هذا يبدو عليكِ.

ـ عماد، أنا وحيدة منذ أن أتيت من أمريكا، وأنا هنا لا أعرف صديق ولا صديقة، غير أن الدكتورة صارمة في التعامل معي، وهذا

ما يضايقني.

ـ اليوم أو غدًا سيأتي «عز الدين» ويمنحك كل ما تستحقيه.

ـ هل شاهدته عندما أصبح شابًا؟

ـ لا..

ـ إنه وسيم، لكنه يملك كرش ضخم أشبه بامرأة حامل، ينام بجواري على السرير وأشاهده فينتابني الاشمئزاز، غير إن الكرش لا يساعده على ممارسة الجنس معي.

الجنس..تلك الكلمة الساحرة التي أتمنى أن تجمعني بها، تحدثت بحزن وتلاعبت بملامح وجهها المثيرة واستأنفت لا بد أن يطرح ظهره على السرير وأجلس من فوقه، وهذه هي الطريقة الوحيدة لممارسة الجنس معه، إنه بخيل للغاية، هكذا قالت بنرفزة..

والشيء المستفز إنه ينام بسرعة، ويتركني أراقب كرشه الكبير المحتل لأكبر مساحة من السرير مما يجعلني أتقيأ.

ولم أجد سوى أني أحتضنها قائلًا: كل شيء سيكون على ما يرام، تركتني وذهبت إلى الداخل لتقوم بغسل وجهها الذي ابتل بالدموع، وجلست أنتظرها تأخرت فأقلقني ذلك جدًا، وقمت من مقعدي

لأتفقد؛ وقفت أمام الباب الذي كان مواربًا وضغطت على جرس الباب، فجاءت لي شبه عارية قميص نوم شفاف يصل إلى قبل المؤخرة، بحلقت في عيني وبحلقت في عينيها، والتقينا مندفعين حملتها من فوق الأرض بسهولة لتصدر منها صرخة ممزوجة بآهات لذيذة منحتني طاقة جبارة، أغلقت الباب بكعب قدمي وانطلقت بها إلى أقرب مقعد وضعتها فوقه حيث نَزعت القميص لتصبح عارية تمامًا وأنا تخلصت من كل ملابسي في ثوان لنصبح عاريين، والتقت شفتي بشفتيها في قبلات ساخنة طويلة كانت متفننة في القبلات، وسرعان ما طوقتني بقدميها لنبدأ بعد ذلك عملية الجماع فوق المقعد الفوتيه الضخم لتعلو منها الصرخات والتنهدات حيث تحجر ثديها وبرزت عظام صدرها وانسال العرق من علينا كالسيول، دفعتني بقوة من فوقها لتطرح نفسها فوق السجادة الشنواه التي تكسو الصالة لنبدأ رحلة أخرى لذيذة، وبعد قضاء أكثر من الساعة قمنا وتحركنا في البيت عاريين اصطحبتني إلى المطبخ وكشفت لي عن مخبأ تخبئ بداخله زجاجات الويسكي وأكواز البيرة، أدهشني ذلك وأدركت أنها فتاة ليست سهلة، قالت لي: إن الدكتورة تحرم هذه الأشياء، وإذا علمت بوجودها تكون كارثة.

ـ دعيها تعيش في عالمها النظيف ونحن نحيا في هذا الملكوت اللذيذ الملعون.

تجرعنا أكواز البيرة بشراهة وأعقبنا عليها بإشعال السجائر، ثم وقفت على أطراف قدميها ومنحتني قبلة ساخنة ثم استلقت على ترابيزه تتوسط المطبخ وبحركة رشيقة رفعت ساقيها لأستكمل معها بلذة وراحة عجيبة ولم تتوقف أثناء الممارسة برميي بألفاظ بذيئة وكأن هذا جزء من متعتها غير صوتها الذي كان يلمسني من الداخل ويعمل على شحن طاقتي، ولما انتهينا حملنا كوزين بيرة وخرجنا إلى الصالة، ارتديت الملابس وذهبت وارتدت ملابسها وعادت لي وجلست بجواري تحدثنا قليلًا، لنتفاجأ بالدكتورة أمامنا صوبت عيناها عليّ وعلى يدي بالذات حيث كنت أحتفظ بكوز البيرة، أما جودي كانت تخلصت منه، تقلصت عضلات وجهها وبدت عيناها لامعة.

ـ ماذا تفعلان؟!

ـ لا شيء "عماد" فقط جاء من بضع دقائق وكان ينتظرك، هكذا قالت "جودى" بسرعة.

ـ ما الذي تمسك به؟

أومأت برأسي ونظرت إلى جودي، فنظرت إلينا وتقدمت نحوي وضربتني بحقيبة يدها على وجهي وصرخت فيّ: أخرج من هنا.

كانت أمي التي دائمًا تدعو لي وتحتضني بحنان وخوف افتقدته في

أمي الحقيقية، نظرت عيناها إليّ كانت حزينة وهي تشاهدني بجوار زوجة ابنها. كانت عيناها تصرخ من خيبة أملها فيّ، ولكن الشيطان استطاع التغلب عليّ، صورتها وهي توبخني وتضربني لا تفارقني أبدًا. مضت الأيام، وكنت أذهب إلى هناك وأحاول رؤيتها ولكن علمت من الشيخ "فضل" أنها مريضة وجليسة الفراش، قمت بالاتصال وكانت ترد عليّ جودي وفور سماع صوتي تغلق الهاتف في وجهي. وفي ذات مرة قالت لي: "عماد" لا تحاول الاتصال مرة أخرى.

ـ قلت لها: أخبار الدكتورة إيه؟

قالت لي: إبقى بعيد وهي ستتحسن.

وحاولت الاتصال مرة أخرى وأخبرتني أن "عز الدين" جاء وسيأخذ الدكتورة وهي ويسافر بهما. وفي ذات يوم كنت أجلس في مقهى "صن رايز" المقهى المحبب إليّ، وشاهدت "جودي" و"عز الدين"، ولكن الذي لفت انتباهي هو "عز الدين" وما يملكه من جسد ممشوق كلاعبي كرة القدم، أين الكرش التي كانت تتحدث عنه؟! إنها من فصيلتي، ملعونة مثلي؟!

ومضت الأيام بسرعتها وخشونتها وعلمت أن الدكتورة هاجرت

ولن تأتي إلى القاهرة مرة أخرى، ذهبت إلى الفيلا فوجدت آخرين يقومون بفرش الأثاث، شعرت حينها بالهزيمة، وأنني أحمل بداخلي عدوًا شرسًا سرعان ما يسمعني دوي ضحكه الذي لا يتوقف..

****

٥. الجدة مهرى

كنت كل يوم أكتشف شيئًا، أكتشف أن النقود أقوى من أي بلوند، واستشهدت بذلك "بإنجلترا" التي تحتضن ما كانوا يطلقون عليهم إرهابيون، وأيضًا النصابين والهاربين بأموال هذا الشعب فهي دولة ذكية للغاية استفادت خزانتها من تلك الأموال..القوة ليست في الجنسية، وإنما في النقود هي القوة التي لا تضاهيها قوة، وكنت أتخيل أن الديمقراطية هي عبارة عن تمثيلية تقوم بتمثيلها القوى العظمى في العالم؛ ليبرروا حروبهم وسفكهم لدماء هؤلاء الضحايا، وإنهم يدافعون عن حقوق الإنسان..الإنسان الذي طحنوه وخزوقوه..

قابلت بالصدفة مستر "بول" الجنرال الأمريكي. كان يجلس في بار "كوريانا" بصحبته فتاة أفريقية حيث كانا يضحكان وهم يتجرعان أكواز البيرة المثلجة، اقتحمت خلوته وقلت له:

ـ أهلًا: مستر/ بول، نظر إليّ بعينين يغشيهما الأرق من كثرة

الشرب، بينما الفتاة الأفريقية حيتني بحرارة حيث كانت تعرفني جيدًا، قلت له: هل نسيت يا رجل الجولف، أنت كنت من أفضل اللاعبين، نادي "الدبليو مايروت"؟

ـ نعم أتذكر تلك الأيام جيدًا، لكنني انقطعت عن ممارسة تلك اللعبة منذ سنوات حيث أصبت في قدمي اليمنى بكسر، من أنت؟ هكذا قال وهو يمحلق فيّ.

ـ أنا عماد..نظر إليّ وظل صامتًا..وأنا استكفيت بذلك، تركته يستمتع بوقته، هذا الرجل اقترب من عامه الخامس عشر في القاهرة، هو جنرال أمريكي يعمل في الجيش المصري خبير دبابة..وغيره كثير من العسكريين الأمريكان، يعملون في الجيش المصري..خبير دبابة ..خبير طيران..خبير صاعقة..خبير مدفع..وهكذا، كان راتبه حين أنبأني وقتها سبعين ألف دولار، يأخذها من الماعونة التي تقدم لمصر، ربما الوحيد الذي كان يكره الأغاني التي يتغنى بها المصريون عن القوة والجيش هو أنا، ربما لأن المصريين لا يعرفون حقائق كثيرة ..لا يعرفون أننا محتلون، وإذا قررنا التخلص من هذا الاحتلال سيرهقنا جدًا، وأتعجب أكثر من الذين يتطاولون على إسرائيل! ويتوعدون لها! هم واهمون..الأمريكان والإسرائيليون نسيج واحد..وأنت

تأخذ سلاحك منهما، فكيف تتوعد لهما؟!..لا بد أن الشعب يحمل المسئولية أيضًا؛ هكذا كنت أرى.

****

المصريون أصبحوا يشبهون بعضهم البعض، الكآبة على وجوههم، افتقدوا الضحك والكلام الطيب، أصبحوا شيبة، أن جيلي أو أصدقائي شاب شعر رأسهم وهم في بداية العقد الثالث، ويمكن يرجع ذلك إلى القضية التي تشغلنا وهي الكرامة التي تتمثل في وظيفة ومعاملة جيدة ودعم متوفر..وتعليم راق. ليس أكثر من ذلك هل هذا كثير؟!..أم هناك قوة تريد أن تكون مصر في ذيل الدول! أم هي منظومة متكاملة من الفساد الاجتماعي قبل السياسي! كل ذلك كان يشغلنا..

اقتربت من سن الأربعين، شاهدت وجهي في المرآة فامتلأت بالخوف إنني لم أفعل شيء طول حياتي سوى الأحلام فقط، ماذا جنيت من معاشرة البلوند إنني ألهث وراء السراب. كلما تقدم سني اكتشف أشياء كثيرة كنت لا أراها من قبل، عرفت أن البلوند الذين تشبثت بهم من أجل إنقاذ أنفسنا من هذا العبث..خدعة، فهم جاءوا إلى هنا ليس للزواج من واحد مثلي أضناه الزمن والتصق الفقر به

وأصبح لا مصير له، تعرفت على فتاة جميلة من «أستراليا» قالت لي في بداية الصداقة: بلادكم لا تحترم الحيوان، وأن أستراليا لن ترسل إلينا حيوانات مرة أخرى.

قلت لها :لماذا؟

قالت: إنكم تسيئون إلى معاملة الحيوانات، وأنكم تذبحوها بطرق مفجعة.

قلت لها ببرود: وأنا مالي، ثم سرعان ما تفجرت فيها قائلًا:

ـ كفى تحدث عن الإنسانية والحقوق.

قالت :كيف تحدثني بهذه النبرة.

قلت: إنكم أجرمتوا في حق الإنسانية..وتتحدثون عن حقوق الحيوان..في تلك الأيام تعرفت بواحدة من إنجلترا تدعى «سوزانا» كانت امرأة عجوز وكانت تعشق الجنس، ولكنها كانت بخيلة للغاية فقطعت علاقتي بها. وأيضًا تعرفت على فتاة من فرنسا، لكنها كانت صريحة عندما ذهبت إليها أطلب منها الزواج بعد صداقة استمرت شهر بالكامل قالت لي: أنت فقير يا عماد، وأنا لم أجيء إلى القاهرة لأتزوج بواحد مثلك..تتنوع الشخصيات الانتهازية في كل بلاد العالم

كلٌ يلعب على شاكلته، وكنتُ قد ملأني الخوف من أشياء كثيرة..أن أول شيء أفتقده في حياتي كان عمري الذي ضاع في سبيل البحث عن الحرية، الديمقراطية..إنني أكره مصر جدًا، أكره هذه البلد الكئيبة، البلد التي سلخت أبنائها، أكرهها من صميم قلبي، أكرهها؛ لأنها أخرتني وضيعتني، وألقت بأحلامي في اليم..

****

ترددت على بار «سان مارينو» لألتقط من هناك امرأة بلوند عجوز، لقد مللت من صغار السن وبدأ لدي ميول لصُنع علاقة مع امرأة تكنز من المال والخبرة ما يهيئ لي المطاف. اكتشفت أني أجلس لرغبة في نفسي ربما تكون مراجعة للنفس، لم تكن تشغلني تلك المرأة العجوز التي تجلس أمامي، كنت فقط أنظر لزجاجة البيرة وأعبث بالكأس الممتلئ بالسائل في حالة من اللامبالاة، وكان لدي علاقة جيدة مع النساء الأفارقة اللاتي يعملن في مختلف البارات، وكانت تجلس معي فتاة أفريقية، وكنا نضحك بصوت عال وانجذبت تلك المرأة إليّ.

استدعتني ذات مرة لتناول كأس معها، وذهبت وجلست معها ودار بيننا حوار غريب لأول مرة يحدث معي.

قالت لي: واضح أنك تحب الأفارقة؟

ـ لماذا هذا السؤال؟

ـ أرى طاولتك لا تخلو منهن.

ـ في الواقع هن اللاتي يرغبن فيّ.

ـ لكنك تبدو فقير، فلماذا يلتفون حولك؟

امرأة ليست سهلة على الإطلاق..خبرة!

لأنني متمكن في العملية الجنسية.

ـ ولكن الأفريقيات لا يملون ذلك.

ـ وأنا أيضًا لا أمل ذلك.

ـ نادت لفتاة، وطلبت منها زجاجة "جوني ووكر" فاخرة، وجاءت الفتاة بالزجاجة وابتسمت لي، فلاحظت ذلك.

ـ فقالت لي: صب لنا كأسين.

قمت بفتح الزجاجة وصببت كأسين، ووضعت قطع من الثلج، تجرعنا أول كأسين.

ـ ثم قالت لي: ماذا تعمل؟

ـ لا شيء...

ـ ومن أين تنفق على نفسك؟

ـ أدخر بعض النقود.

ـ كيف ذلك؟

ـ كنت أعمل وسيط لبعض الشركات.

ـ الحرية شيء جميل.

ـ نعم..وماذا تعملين؟

ـ لا شيء، أنا هنا سائحة، يعني لدي من المال ما يكفيني.

تقوم بإغرائي، وأنا قبلت ذلك، حسنًا! فلنستكمل اللعبة.

ـ تعيشين في فندق؟

ـ لا..استأجرت شقة صغيرة ومريحة.

ـ أجل، الفنادق لها روتين مزعج.

ـ أنا أحب أن أكون على راحتي.

ـ وأين زوجك؟

ـ أنا مطلقة، وأعيش وحدي منذ أعوام.

ـ تحبين مصر؟

ـ نعم، وبالأخص أسوان.

ـ بلد جميلة..

ـ أجل! إنها ساحرة.

(نظرت في عينيها العميقتين) فقالت لي: ليس الليلة..

كيف قرأت عيني بهذه السهولة؟!

ـ قلت لها متى؟

ـ عندما أرغب في ذلك.

قمت من مقعدي وذهبت، امرأة غريبة، لديها خبرة كبيرة، واضح إنها لفت العالم كله وعاشرت كثير من الرجال، الغني والفقير، القوي والضعيف، النصاب والأمين، وكل ألوان الرجال، ولكن يبقى أنا وسأكون الخاتمة التي ستقضي على شيخوختها، لا أعرف كيف لهذه المرأة أن تحيا هذه الحياة، وتبذر هذا التبذير في حين أن كثير من الفتيات الصغيرات الجميلات لا يجدن من يقبل عليهن للزواج والسبب النقود، هذه هي الدنيا تلعب لعبتها المستفزة معنا.

****

تغيرت ملامحي شيئًا فشيئًا وحتى طريقة ارتدائي للملابس تغيرت وأصبح انحذاب البلوند إليّ صعب، انتشر الشعر الأبيض عند السوالف، وأصبح لي كرش..حتى قامتي بدت قصيرة، وحركتي بطيئة، أشقائي تزوجوا، وأصبح البيت فارغ إلا مني أنا ووالديّ اللذان لم يتوقفا عن سبي ووصفي بالكافر..بعض الأصدقاء تزوجوا والآخر سافر إلى البلدان العربية ويعود كل بضعة أشهر ليقص علينا المآساة التي يعيشها المصريين هناك، وكيف أصبح يستعار من كونه مصريًا لشدة سوء وطمع وحقد المصريين بعضهم لبعض..وكان يقول لي إن العرب لم يكرهونا من فراغ، وإنما نحن الذين فعلنا بأنفسنا كل ذلك..يقولون نحن كمصريين نعاني كما لو أننا حيوانات..إن النظام هو الذي جعلهم يعاملونا على هذا النحو..وهو الذي أجبرنا على العمل في بلادهم..متى نتحرر في الداخل والخارج..المعاناة واحدة..

****

ذهبت إلى البار فوجدتها تنتظرني جلستُ على طاولة بعيدة عنها جاءتني، فسنحت لي فرصة مشاهدتها، قصيرة ولها أرداف كبيرة، وبطن كبيرة، ونهدين منتهيين الصلاحية، قرأت في عيني اللامبلاة وكنت فعلًا كذلك قشعرت منها؛ إنها كبيرة للغاية، قالت لي:

ـ هل قلت ما أغضبك مني؟

ـ لا.

ـ لماذا تغيبت تلك الأيام؟

ـ كل ما هنالك إنني كنت مشغول في عملي.

ـ إذن هيا نجلس على طاولتي.

ـ هيا، هيا أيتها المرأة اللعينة.

جلسنا وتناولنا غداءًا خفيفًا، وأعقبنا عليه بكوزين بيرة.

ـ ثم قالت لي أريد الخروج معك..هل تسمح بذلك؟

ـ لا بأس، أنا مستعد..

ـ إذن نذهب إلى وسط البلد ونجلس هناك على مقهى.

ـ قلت لها: ومتى تحبين الذهاب؟

ـ غدًا..

اتفقنا على الموعد، وتقابلنا وآثرت أن نستقل المترو، كانت الساعة تجاوزت السادسة مساءًا، وفور دخولنا عربة المترو، اندفعت الأعين إلينا بطريقة مستفزة، وكان هناك مجموعة من الشباب فأدركت على

الفور وقوع معركة، ولكن لا يعرفون عني البلادة والبرود، من المؤكد سيأخذون عني الطابع المألوف، كنا نقف وقام شاب من هؤلاء وقال لها: تفضلي بالجلوس يا جدة. هكذا قال ساخرًا.

ـ وانتظر مني رد فقلت له: إنت إنسان راقي ومهذب..

وجلست؛ وبعد قليل فسح مكان بجوارها فجلست بجانبها وظلوا هم واقفين ينظرون إليّ ويحتقروني، وصلنا محطة "التحرير" ذهبنا وقصدنا "جروبِّي" حيث المكان هادئ، لفت ذراعيها حول ظهري فجذبت الأنظار إلينا وكنت أشاهد الكثير وهم يهمسون لبعضهم البعض وكنت أعرف أنهم يرون فيّ الشاب الانتهازي، وجلسنا وتناولنا القهوة وثرثرنا وضحكنا وكنت طوال الوقت أرغب في الرحيل، وكانت هي تغضب من ذلك، وبعد أن خرجنا قالت لي: إنها تود أن تتمشى في شوارع البلد.

قلت لها:

ـ حبيبتي وقت آخر، لدي عمل في الصباح الباكر، ترددت قليلًا ولما قرأت الإصرار في عيني قالت لي:

ـ على أن نأتي مرة أخرى؟

ـ نعم..

وذهبنا وكانت تود أن تعود في المترو، لكني أصررت أن نستقل تاكسي. فالحقيقة لم تمانع وذهبنا.

****

وصلنا بيتها وكنت لا أرغب في الصعود معها ألحت عليّ فصعدت معها، فتحت باب الشقة وأضاءتها، شقة صغيرة ومرتبة على الطريقة الأوروبية، تناولت العشاء معها وجاءت بزجاجة ويسكي فعلمت أنها ترتب لليلة حمراء، تجرعنا كأسين ثم اثنين، فنظرت في وجهها شعرت بأن الكآبة تحيطني، ابتسمت لي ومالت نحوي تريد تقبيلي، ادعيت بأنني أتقيأ وبالفعل تقيأت من مشاهدتي لفمها الواسع الفارغ. قالت لي انتظر معي إلى الصباح، أنا أستطيع الاهتمام بك، دخلت غرفتها ونمت فوق السرير وجاءت بغطاء وقامت بتغطيتي. أجل! هي لا تصلح إلا أن تكون أم فقط، وذهبت في نوم عميق لم أفق منه إلا في الصباح عندما أيقظتني، ذهبت إلى الحمام وأخذت دوشًا ساخنًا، ثم خرجت وتناولت الإفطار معها حيث كنا نجلس في المطبخ.

ـ قالت لي: ما الأخبار؟

ـ تحسنت عن البارحة، لا أعرف ماذا حدث مرة واحدة شعرت

بهذا الدوران.

ـ الفتيات الإفريقيات هن السبب.

ـ لا أعتقد، إنني لم ألتقي بهن منذ أيام.

ـ أنت تقيم معي كام يوم تسترد صحتك.

ـ لا، لا أريد مضايقتك.

ـ هذه رغبتي، أرجوك.

وبقيت عندها ثلاثة أيام كل ليلة تحاول معي لكنها تفشل.. مرة تحدثني عن زوجها الشاذ الذي كان يضربها على ظهرها بحزام بنطلونه فتأخذها حجة لتكشف لي عن ظهرها فأشاهد جلدها المترهل وعظامها البارز فينتابني شعور مرير، ومرة تحول على قناة سكس، ولكن دون فائدة، ولما يئست مني قالت لي: إنها تنتظر أقارب لها، إشارة لأترك البيت، قلت لها معنفًا: أنت تبحثين عن المتعة، وأنا أحبك.

ـ عماد، ماذا قلت؟

ـ أنا أحبك وخائف بعد معاشرتك تتركيني.

ـ من قال ذلك!

ـ أنا قلق من أجلك وأحبك، ولذلك لن أفعل شيء إلا بعد الزواج منك.

ـ عماد، أنت جاد؟

ـ نعم هذا ما أتمناه.

ـ أنا سعيدة للغاية بهذه المصارحة.

وفى تلك الليلة قالت لي: لن أدع هذه الليلة تمر دون الاحتفال معك، وخرجنا وذهبنا إلى السينما، شاهدنا فيلم رومانسي، كانت تمسك فيّ بقوة، وكأنني متهم بصحبة شرطي، ثم خرجنا وذهبنا إلى بار "سان مارينو" واحتفلنا هناك، والتفت من حولي الفتيات الإفريقيات وهن يهنئوني، وكانت تنظر إليّ وكأنها تغير عليّ، ومضت الأيام وأبلغتها أنني أستعد للزواج منها وحقًّا مللت منها وكنت ألجأ إليها حين أجد نفسي لا أفعل شيء، وفي ذات ليلة قالت لي أنها لا تريد أن تراني، قلت لها: لماذا؟

قالت لي إنها تشعر بأني كذاب، هي محقة في ذلك. فعلًا أنا كذاب، وذهبت ذات يوم إلى بيتها كانت لديها خادمة آسياوية، وكانت تعرفني سألت عنها قالت لي إنها بغرفتها ودخلت وأنبأتها بحضوري فرفضت الخروج إليّ.

قالت لي الخادمة إنها تحبني وتحدثها عني كثيرًا.

قلت لها أبلغيها بأنني لن أأتي مرة أخرى.

****

ومضت عدة أيام وقمت بالاتصال فردت الخادمة وقالت لي: م/ عماد، مس "مهرى" انتقلت البارحة إلى مستشفى السلام أرجوك تذهب إليها، في الواقع شعرت بأنني سأكون حقيرًا أكثر من ذلك لو تركتها، إنها امرأة عجوز في بلد غريب من الواجب الوقوف بجانبها، وربما تشاهدني فتعتقد أني أحبها حقًّا فتضع لي مبلغ من المال، الحقيقة دفعني لزيارتها أشياء كثيرة تتضارب بداخلي، ذهبت إليها ووجدتها فوق السرير وبجوارها ممرضة جميلة تطعمها الحلوى، وكانت في كامل رشاقتها وسعادتها إن أمثالها لم يموتوا، إنما نحن نموت، دفعت الممرضة جانبًا، وانحنيت أقبل يدها ثم جلست على مقعد قريب منها ظلت تنظر إليّ بعينان صغيرتان يحتويهما جفون مترهلة، قالت لي:

ـ عماد..كل يوم تثبت ولاءك وحبك لي.

كانت الممرضة تتفحصني وتنظر إليّ باحتقار، شعرت بخجل شديد ويمكن هذا الشعور أول مرة يملأني إلى هذا الحد، فسرعان ما نظرت إليها قائلًا في حدة: ممكن تمشي عشان نعرف نتكلم.

ارتبكت وانصرفت على الفور، وتركت المرأة تتحدث بعد أن بدت سعيدة.

ـ عماد، كنت أراهن على مجيئك.

شردت أفكر في أمور كثيرة، يمكن نظرة هذه الفتاة هي التي دفعتني للتفكير فيها، وكانت المرأة تتحدث دون توقف وهمست إلى نفسي قائلًا: تعرفين أيتها العجوز ما أريده، ولكن تستمتعين وأنتِ تستعيدين أيام المراهقة على حسابي، أين ثمن الوقت الذي أهدرته معكِ، سحقًا لكل شيء..سحقًا للأموال التي دفعتني للزحف ورائك، سحقًا لبلادي وميلادي، وكل ما حولي من تزييف وخداع، وسرعان ما تركتها وخرجت واليأس يملأني ولا سبيل لي. صاحت تناديني بصوتها المستفز الذي تملأه الشيخوخة، ولكني تجاهلت ندائها ومضيت إلى الخارج مارًا بالعيادات لمحت شيء أفزعني وإذا بي أشاهد "أميرة" فتاتي التي تخليت عنها، كانت بصحبة رجل بدا عليه من ملامحه أنه بلوند، وكان إيطالي، دخلت عيادة الباطنة ودخل معها وتقدمت نحو العيادة بخطوات بطيئة مرتعشة، دقات قلبي توالت في سرعة شديدة وكأنني عائد من سباق، شفتاي تحجرت وشعرت أنني لا أستطيع الكلام، إنها هي..أنا أعرفها جيدًا. وبعد مرور دقيقة مرت

وكأنها دهر، خرج هذا الإيطالي فسألته مندفعًا: عذرًا، هذه الفتاة التي دخلت معك هل هي أميرة؟

أومأ برأسه مترددًا..فأسرعت قائلًا: أنا "عماد" صديقها من أيام الجامعة.

ارتاحت ملامحه وبدأنا الحديث، كان يحاول أن يعرف مني أكثر مما يطلعني على شيء، وعلمت منه أنه تزوجها منذ أكثر من خمس أعوام، بعد أن انفصلت عن صديقه، أما هو فيعمل "بودي جارد" لدى أمير سعودي، تغزل فيها كثيرًا، وكان يشبهها بـ "كليوباترا"، أجل! فهي فتاة لا مثيل لها في القوام والجمال والشعر الأسود الطويل والوجه المتناسق، كل شيء يمنحها انفراد، قال لي: أنها تعتمد على نفسها في كل شيء حتى منعته من الدخول معها إلى الطبيب..وأنها فتاة طموحة تخطط لحياتها جيدًا، ولكن كثيرًا ما أفتقد فيها الرومانسية حيث تتحول لفتاة أخرى، هي أشبه بفراشة، هكذا كان يتكلم عنها بكل فخر، ولكن اللافت للنظر الرومانسية التي يفتقدها، أن الذي كان يضايقني منها هو الرومانسية المفرطة عندها، ويمكن هذا ما كانت تخصني به..وماتت بعد ذلك، فأصبحت مثلي تبحث عن المال والأمان أما الحب فليس له وقت في هذه الأيام.

خرجت من العيادة ووجدتني في وجهها وجهًا لوجه رفعت عيني المكسورة في وجهها الذي بدا عليه التأثر لكن رأسها كانت مرفوعة شامخة. تغيرت ملامحها أو تضاعف جمالها، كانت عيناها قويتان تحدق فيّ بقوة شديدة وكأنها تلعنني، وكنت أقف أمامها وكأنني طفل يقف أمام أمه التي تؤنبه لفعل ما هو سوء، وأنا القوي الذي كنت أواجه تلك الأشياء بقوة..الآن أقف موقف الهزيل المنكسر؛ إنني لم أتوقع أن يحدث ذلك، أو أن تنتصر عليّ. تقدمنا في السن وتجاوزنا الثلاثين، كنت أكبر منها بثلاث أعوام، وكنت شغوف بسماع صوتها، هل ما زال رقيق؟ أم تحول للخشونة والقوة كما تحول شكلها إلى هذا الجمال الجامد؟ كانت المبادرة منها وتساءلت في ذهول: عماد؟

ـ كنت أزور صديق هنا وشفتك قلت أطمئن عليكِ..إزيك يا أميرة، هكذا قلت بنبرة ضعيفة ميتة.

بدا على وجهها الارتياح، ومدت يدها في بطء شديد لتسلم عليّ ثم قالت بسخرية: بخير.

نظرت في عينيها وهي أيضا فشاهدت على الفور السلسلة الذهبية التي تتدلى من عنقها وعالق بها "الصليب".

قلت لها: اعتنقتي المسيحية يا أميرة؟

ـ زي ما أنت اعتنقت اليهودية..

ـ لا..ده كان سوء فهم. هكذا قلت وكأنني أستعد لأبرر ما كان.

ـ ميري، هيا بنا. هكذا كان يناديها ذلك الإيطالي.

ـ تسمح تسيبنا نمشي..وهكذا انتهى هذا اللقاء العنيف الذي هزني بشدة، وكانت الدنيا على ما تبدو طبيعية، صراعات هنا وهناك.. أحلام تحترق وأخرى ترى النور..تنازلات وتضحيات مقابل الحياة.. تلاعب بالدين من أجل الدنيا..شعور بالوحدة يغمرني ويدفعني للهو..أحلم بيوم القيامة ليأتي ويخلصنا من هذا العالم المخيف!

وقفت امرأة عجوز يبدو عليها الفقر، ملابسها رثة ملامحها محفور عليها الشقاء، أشارت لسائق تاكسي «أنهكه الفقر وبدا هزيل» فوقف لها على التو دون أن يتركها، لأن مظهرها ليس بمظهر زبائن التاكسي، وإنما امرأة تريد المساعدة..السائق شاهدها في صورة امرأة حسناء ترتدي ملابس مثيرة تُلطخ وجهها بالمساحيق حتى باتت امرأة لعوب..مد يده وفتح لها الباب من الداخل، فركبت على الكنبة الخلفية. البعض قال إنه سائق محترم تُحسب له هذه الصدقة، لكن السائق لم يصدق نفسه أنه فاز بها..قالت له بنبرة مثيرة: على طول يا أسطى..انطلق وكان يود أن يظل هكذا على طول يستمتع بملامح

وجهها المعكوسة أمامه في المرآة، أوقفته قائلة: خلاص نزلني هنا؛ وقف وبدا عليه الضيق برزت من شنطتها الصغيرة ورقه بمائة جنيه، ناولتها له باستهتار، قال لها: مفيش فكة..

قالت له: مش معايا غير ورقتين بس فئة المائة جنية.

ـ طيب اتفضلي انزلي وأنا هفكها من هنا، هكذا قال وهو يقذفها بنظرة مريبة.

نزلت المرأة، ذهب هو على قدميه لمتجر صغير فلم يجد فكة ...شاهد المرأة أثناء عودته برجل يقف يتحدث معها. وكان الرجل يسألها إن كانت تريد أن تعبر الطريق فيعاونها، لكن السائق شاهد الرجل في صورة من يحاول جذبها لسيارته من أجل المتعة..تَسَحب السائق إلى السيارة وأدار الموتور وفر هاربًا بالنقود، حاولت المرأة أن تلحق به لكنها تعثرت، فسقطت على الأرض تصرخ وتستنجد.. التف حولها المارة يحاولون إنقاذ العجوز، لكنها ظلت تصرخ بعد أن سُرق منها ثلث معاش زوجها...هكذا الشيطان يصطاد فرائسه، وهكذا يُخيل لنا الأشياء؛ لكن كل ما تمنيته وسعيت من أجله كان..

(من أجل الحياة)

فبراير ٢٠٠٧